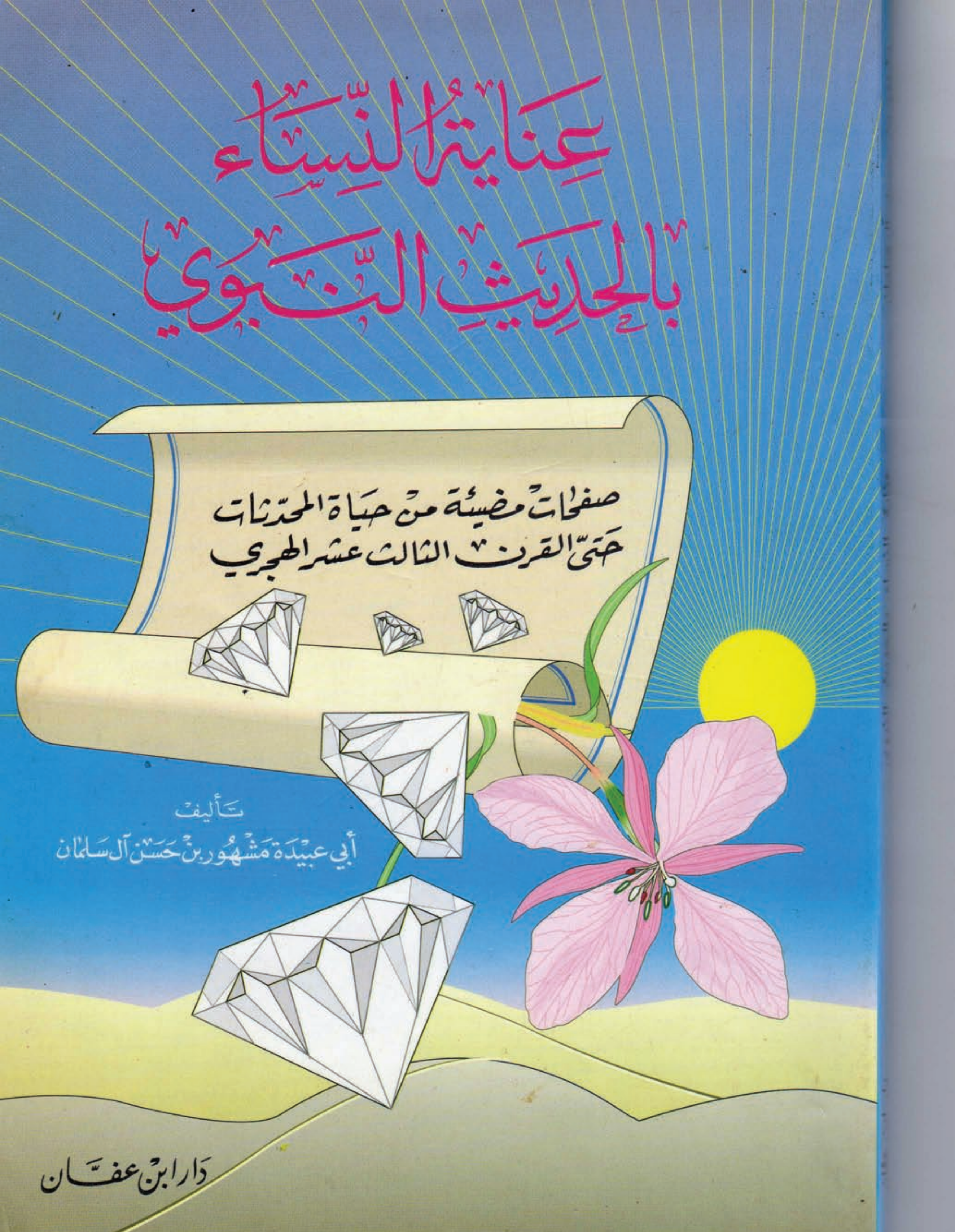


عناية النساء بالحديث النبوي

صفحات مضيئة من حياة المحدّثات حتى القرن الثالث عشر الهجري

تأليف
أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

دار ابن عفان

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار ابن عفان للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الخبر - العقربية

شارع أبو حدرية - تقاطع الشارع العاشر

ص ب: ٢٠٧٤٥ - رمز بريدي ٣١٩٥٢ - الثقبة - ت: ٨٩٨٧٥٠٦

مقدمة المؤلّف

إن الحمد لله ؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله ؛ فهو المهتد، ومن يضلل ؛ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد :

فمن نافلة القول الإشارة هنا إلى مكانة المرأة في الإسلام، فإن هٰذا الموضوع قد أشبعه المُحْدَثُونَ بالبحث، وكُتبت فيها عشرات بل مئات الكتب والرسائل، ولٰكن الذي يهمّني هنا الإشارة إلى حثّ الإسلام على تعليم المرأة وحسن تربيتها ؛ ليكون ذٰلك بمثابة التمهيد إلى موضوعنا: «عناية النساء بالحديث النبوي».

فرض الإسلامُ على المرأة العلم، وهٰذا الفرض يتناول أركان الإيمان، ومعرفة التوحيد معرفةً صحيحة سليمة من أيّ بدعة أو خرافةٍ أو تعلُّق بغير الله سبحانه من حيث السؤال والرغبة والطلب، وأداء الفرائض الشرعيّة والواجبات الدينيّة، ويتناول أيضاً معرفة ما تحتاج إليه للقيام بواجبها نحو زوجها وأسرتها، ويتناول أيضاً ما يصلح قلبها من الآفات والأمراض (الحسد، الغيبة، النميمة . . .)، وما يصلح قالبها وبدنها من طمع الأشرار وشياطين الإنس والجان ؛

فعليها أن تعرف أحكام الزينة وستر العورة، وشروط الحجاب الشرعي، وأحكام النظر والاختلاط والخلوة وفقاً للثابت في كتاب الله وصحيح سنة رسول الله ﷺ.

وبعبارة موجزة: عليها أن تتعلّم ما يلزمها في يومها وليلتها، وما تكون به خالية عن الشرك والمعاصي والآفات والأمراض القلبية بمعرفة خطورتها وطريق الشفاء منها، ولا يكون هذا إلا بالعلم والتعلّم أولاً، وقد شعرت النساء في القرون المفضلة بحاجتهن إلى العلم؛ فجئن إلى رسول الله ﷺ وطلبن منه مجلساً خاصاً بهن.

ففي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ؛ فقالت: يا رسول الله! ذهب الرجال بحديثك؛ فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله؛ فقال: «اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا»؛ فاجتمعن فأتاهنّ فعلمهنّ مما علّمه الله.

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على تعليمهنّ؛ فكان يأمرهن حتى الحيّض منهن والبنت البالغة والتي قاربت البلوغ (العواتق) أنْ يشهدن مجامع العلم والخير، وقطع على الفقيرات منهنّ العذر بعدم التخلّف لعدم وجود جلباب لها تخرج به.

ففي «الصحيحين» أيضاً عن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها؛ قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نُخْرِجَهُنَّ في الفطر والأضحى: العواتقَ، والحُيَّضَ، وذواتِ الخُدور، فأما الحُيَّضُ؛ فَيَعْتَزِلْنَ الصلاة، ويَشْهَدْنَ الخيرَ ودعوةَ المسلمين.

قلت: يا رسول الله! إحدانا لا يكون لها جلباب؟ قال: «لتلبسها أُختها من جلبابها».

ولذا؛ وجد في التاريخ الإسلامي نوابغ من النساء في كافة الفنون والعلوم، وتراجمهن حافلة في الكتب؛ فوجد منهم الفقيهات، والمفسرات، والأديبات، والشّاعرات، والعالمات في سائر علوم الدين واللغة[1].

وكان في برهة من الزّمن لا تجهز العروس إلا ومعها بعض الكتب الشرعية النافعة، فذكر ـ مثلاً ـ الإمام الذهبي أن البكر كان في جهازها عند زفافها نسخة من كتاب «مختصر المزني»[2].

وهذا يدل على شغف النساء بحب العلم آنذاك، وهذا يسجّل للمرأة المسلمة مفخرةً عظيمةً اعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء؛ فإن غوستاف لوبون ذكر أنه كثر في العهد العباسي في المشرق وفي ظل الأمويين في الأندلس اللواتي اشتهرن بمعارفهن العلمية والأدبية، وعدَّ ذلك «من الأدلّة على أهمية النساء أيام نضارة حضارة العرب»[3].

ولم يقتصر دور المرأة على تعلّم العلم وطلبه، بل تعدّاه إلى المشاركة في تعليمه ورواية كتبه وتدريسها على نحوٍ فُقْنَ فيه كثيراً من فحول الأمم، يدلُّ على ذلك سجلٌ حافلٌ فخم من أعلام النساء، يعجز عن استقصائه العصبةُ أولوا القوة، ولو ذهب باحث يسلسل حلقاته التي احتلت أولاها أمهات المؤمنين ومن تابع منهم من لدن عصر الرسول ﷺ إلى يومنا هذا؛ ما كفاه عمره وإنْ طال.

---

(١) صنّف أبو الحسن المعافري «تراجم شهيرات النساء»، وحققته عائدة الطيبي، ونشرته في مجلة «مجمع اللغة العربية» بدمشق.
انظر كتابنا: «الإشارات إلى أسماء الرسائل المودعة في بطون المجلات والمجلدات».

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٤ / ٢٣٣).

(٣) «حضارة العرب» (٤٨٩).

وإني في كتابي هٰذا واقف على أشهر العالمات والراويات للحديث النبوي وكتبه في كل عصر ومصر، على وجه موجز يبرهن على عناية النساء بهٰذا العلم؛ عسى أن تكون رسالتي هٰذه همزة وصل بين أخواتي المؤمنات وبين سلسلة الذهب التي احتوت على تلك الدُّرر من الصحابيات ومَنْ وليهن في ميادين العلم من الراويات، وتكون أيضاً قطعاً بينهن وبين أعداء الإسلام بتنبيههن باللجوء إلى العلم الشرعي، وتحذيرهن من السموم التي بثَّها الأعداء في المـدارس والجامعات؛ إذ رأوا الميدان مفتوحاً لا مقاومة فيه ولا شاغل يملؤه؛ فكرسوا كل جهودهم للوصول إلى تحطيم بنيان الأمة عن طريق التأثير في المرأة صانعة الأجيال، حتى قال المستشرق جب: «إن مدارس البنات هي بؤبؤ عيني».

والله من وراء القصد، وصلى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

١١ / شوال / ١٣١٢هـ

* * * * *

الفصل الأول

بين الرواة والراويات

*** النساء شقائق الرجال في علم الرواية.**

إن امتاز الرجال عن النساء في الشهادة؛ فإنهن شقائق الرجال في علم الرواية، ومن الجدير بالذكر هنا أن الفرق بين الرواية والشهادة مسألة أعيت جهبذاً من العلماء؛ فمكث فترة من الزمن يبحث عن الفرق بينهما، ألا وهو الإمام القرافي رحمه الله تعالى؛ فاسمع إليه وهو يقول في مطلع كتابه القيم «الفروق»:

«الفرق بين الشهادة والرواية: ابتدأتُ بهٰذا الفرق بين هاتين القاعدتين لأني أقمتُ أطلبه نحو ثمان سنين؛ فلم أظفر به، وأسأل الفضلاء عن الفرق بينهما وتحقيق ماهية كل واحد منهما؛ فإن كل واحدة منهما خبر؛ فيقولون: الفرق بينهمـا: أن الشهـادة يشترط فيها العدد والذكورية والحرية بخلاف الرواية؛ فإنها تصح من الواحد والمرأة والعبد.

فأقول لهم: اشتراط ذٰلك فيها فرعُ تصوِّرها وتمييزها عن الرواية، فلو عرفت بأحكامها وآثارها التي لا تعرف إلا بعد معرفتها؛ لزم الدّور، وإذا وقعت لنا حادثة غير منصوصة؛ من أين لنا أنها شهادة حتى يشترط فيها ذٰلك؟ فلعلها من باب الرواية التي لا يشترط فيها ذٰلك؛ فالضرورة داعية لتمييزها.

ولم أزل كثير القلق والتشوُّف إلى معرفة ذلك حتى طالعتُ «شرح البرهان» للمازري ؛ فوجدته ذكر هذه القاعدة وحقَّقها، وميَّز بين الأمرين من حيث هما، فقال رحمه الله: الشهادة والرواية خبران؛ غير أنَّ المخبَر عنه إنْ كان أمراً عاماً لا يختصّ بمعيَّن؛ فهو الرواية كقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات»، و«الشفعة فيما لا يقسم» لا يختصّ بشخص معيَّن، بل ذلك على جميع الخلق، في جميع الأعصار والأمصار، بخلاف قول العدل عند الحاكم: «لهذا عند هذا دينار» إلزامُ لمُعَيَّنٍ، لا يتعدَّاه إلى غيره؛ فهذا هو الشهادة المحضة، والأوَّل هو الرواية المحضة، ثم تجتمع الشوائب بعد ذلك...»[1].

ومقصودنا في أن النساء شقائق الرجال في علم الرواية أمور نجملها فيما يلي:

أولاً: أنهن مثل الرجال في التحمّل، من حيث حرص الرسول ﷺ على تعليمهن وإسماعهن حديثه؛ فهنَّ معنيَّات بهذا الدين، ومكلَّفات به من أوَّل لحظةٍ دعا فيها رسول الله ﷺ الناس.

ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وأنْذِرْ عشيرَتَكَ الأقْرَبِينَ﴾؛ قال:

«يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيّة عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله

(١) «الفروق» (١ / ٤ - ٥) بتصرف يسير.

وانظر - غير مأمور -: «تدريب الراوي» (١ / ٣٣٢)، و«توضيح الأفكار» (٢ / ١١٤)، و«الرسالة» للشافعي، فقرة (رقم ١٠٠٣ - ١٠٨٨).

شيئاً».

فكما أن رسول الله ﷺ خصَّ بعض الشرفاء والكبراء بدعوته؛ خص بعض الكبيرات والشريفات بها أيضاً، وهذا يدل على استقلال شخصيتهنَّ، وتلقيهن هذا الدين منذ اليوم الأول كالرجال سواء بسواء.

علق الأستاذ محمد المنتصر الكتاني على الحديث السابق بقوله:

«فما كادت تسمع المرأة العربية باسمها ينادى ويهتف به حتى استجابت للنداء سميعة، مطيعة، خفيفة، مرحة، كلها آذان وانتباه وألسنة مجيبة: لبيك لبيك يا داعي السماء، يا أيها الأمين والصديق! لقد عرفناك وليداً قد خلقت بك الدنيا خلقاً جديداً، وعرفناك رضيعاً فكان اليُمْنُ والخير مصاحباً لمرضعاتك، وعرفناك يافعاً فعرفنا بك الطهر والعفاف، ثم صرت زوجاً فكنت فذاً في قومك، حنواً وبراً، ثم عرفناك أباً فعرفنا الأبوة البرة الكريمة لكرائم معززات مكرمات، لا عهد لنا بمثلها أبوة لمثلهن عذارى مدللات، فمن مثلك أصلح للنذارة الصادقة والبشارة السارة والقيادة الرشيدة لهذه البشرية الضالة! وإذا بالمرأة العربية تستزيد نذيرها الهادي ما تعرف به حقيقتها، وتدرك به غايتها من هذه الدنيا، وواجبها فيها والفروق بينها وبين مستعبديها من الرجال، وإذا بها تدرك ولا يزال بها رمق أن الأصل واحد والحقوق والواجبات مشتركة، وأنهن والرجال شقائق، فآمنت بهذا الداعي الحبيب الذي ينذرها وقومها: **﴿يأْمُرُهُم بالمعروفِ وينهاهُم عَنِ المُنكَرِ ويُحِلُّ لهُمُ الطَّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عليهِمُ الخبائثَ ويضَعُ عنهُمْ إصْرَهُمْ والأغلالَ التي كانَتْ عليهِم﴾**[1]، **﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُمُ الَّذي خلقَكُم مِن نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها وبَثَّ منهُما رجالاً كثيراً ونساءً﴾**[2]، **﴿للرِّجالِ نصيبٌ ممَّا اكتسبوا**

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) النساء: ١.

وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[1]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[3]، «إنما النساء شقائق الرجال»[4].

لذلك؛ كانت المرأة العربية السباقة لهدي النبوة ودين الحق، قد سبقت الرجال جميعاً. . . فكانت خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ أول مستجيب ومؤمن ومشجع؛ فكانت تقوي قلبه لتلقي ما أنزل الله عليه، قال لها: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت: كلا والله، لا يخزيك الله أبداً، وذكرت خصاله الحميدة وتوجهت به إلى ورقة.

يقول ابن إسحاق: «خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به؛ فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من الرد عليه فيرجع إليها؛ إلا تثبته وتهون عليه أمر الناس».

ثم تتابعت النساء بعدها: أسماء بنت أبي بكر، وأم أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير، وفاطمة بنت الخطاب أخت عمر أمير المؤمنين . . .»[5] انتهى.

وسبق أنْ ذكرنا أنَّ النّساء طلبن من رسول الله ﷺ حديثاً خاصّاً بهن عندما قلن له: يا رسول الله! ذهب الرجال بحديثك؛ فاجعل لنا من نفسك

---

(1) النساء: ٣٢.

(2) النمل: ٩٧.

(3) التوبة: ١٩٩.

(4) أخرجه أحمد (٦ / ٢٥٦)، وأبو داود (رقم ٢٣٦)، والبيهقي (١ / ١٦٨)، وابن عبد البر (٨ / ٣٣٧) بإسنادٍ صحيح.

(5) من مقالة له نشرت على حلقات في «مجلة المسلمون» (المجلد الخامس، العددان الرابع والخامس وما بعدهما).

يوماً، فقال لهن: «اجتمعن في يوم كذا وكذا. . .»؛ فاجتمعن فأتاهن، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: «ما منكن امرأة تقدِّم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار»، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: «واثنين».

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على إسماعهن الخير؛ فكان يخصّهن بالتذكير.

عن ابن جريج عن عطاء بن جابر بن عبد الله؛ قال: قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلّى؛ فبدأ بالصلاة ثم خطب، فلما فرغ نزل، فأتى النساء فذكّرهن وهو يتوكأ على يد بلال، وبلال باسط ثوبه يلقي فيه النساء الصدقة.

وفي رواية عن ابن عباس: فظن أنه لم يُسْمِع النساءَ؛ فوعظهُنَّ وأمرهن بالصدقة.

وقال ابن جريج لعطاء: أترى حقاً على الإمام ذلك يُذَكِّرُهُنَّ؟

قال: إنه لحقٌّ عليهم، وما لهم لا يفعلونه!

إذاً الأمر ليس خاصاً برسول الله ﷺ؛ فينبغي أن يعتني العلماء وأولياء الأمور بالنّساء كما اعتنى بهن رسول الله ﷺ والسلف الصالح[1]، فيأخُذْنَ العلمَ والرواية، ويتحمّلنَ ذلك كالرجال ليكنّ هاديات مهتدياتٍ، مفاتيحَ للخير، مغاليق للشرِّ، فما من طاعة تقوم على الوجه الصحيح إلا بالعلم، والعلم من أفضل الطاعات على الإطلاق، وهذا ما صرحت به امرأة عالمة وفقيهة زاهدة، ألا وهي أم الدرداء؛ فإنها قالت: «لقد طلبتُ العبادة في كل شيء؛ فما أصبتُ لنفسي شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم».

فما أحوج نساء هذه الأيام لأمثالها من المربّيات العالمات الفاضلاتِ الزاهدات؟!

---

(1) وسيأتي صور لذلك في الفصل الرابع إن شاء الله.

وقد علق الداعية السلفي عبد الحميد بن باديس رحمه الله تعالى على الحديثين السابقين بكلام متين؛ فقال شارحاً للحديث الأول:

«كان الرجال يلازمون النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فيحيطون به للتعلم، فلا يستطيع النساء مزاحمتهم عليه، وكن يجلسن في آخر صفوف المسجد، فإذا تحدث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعلم بعد الصلاة لا يتمكنّ من كمال السماع، وكانت لهنّ رغبة في العلم مثل الرجال؛ إذ كلهنّ يعلمن أنهنَّ مكلفات بأحكام الشريعة مثلهم، فلذا؛ سألن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعيِّن لهنّ يوماً باختياره هو يخصصهن به، فأجابهن إلى ما طلبن ووعدهن يوماً يعينه، ووفى لهن بوعده؛ فلقيهن في ذٰلك اليوم وحدثهن؛ فوعظهن وأمرهن بأشياء مما عليهن من أمر الدين، وأخبرهن بأن كل واحدة منهن يموت لها ثلاثة من ولدها فتقدمهم قبلها؛ فإن ذٰلك التقديم يكون لها حجاباً ووقاية من النار لعظم الأجر بعظم المصيبة، فطمعت إحداهن في فضل الله وخافت أن يكون هٰذا الفضل محصوراً فيمن قدمت ثلاثة فسألت عمن قدمت اثنتين؛ فأخبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لمن قدمت اثنتين أيضاً».

ثم ربط الحديث الأول بالحديث الثاني؛ فقال مستنبطاً الأحكام والفوائد منهما:

«النساء شقائق الرجال في التكليف؛ فمن الواجب تعليمهن وتعلمهن، وقد علمهن صلى الله عليه وآله وسلم، وأقرهن على طلب التعلم، واعتنى بهن وتفقدهن كما في حديث ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج ومعه بلال، فظن أنه لم يسمع النساء؛ فوعظهن وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه.

لا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التعلم، فأما أن يفردن بيوم كما في

هٰذا الحديث، وأما يتأخرن عن صفوف الرجال كما مرَّ في حديث ابن عباس رضي الله عنه يجعل لتعليم النساء يوم خاص بهن ويتكرر هٰذا اليوم بقدر الحاجة، ولما كانت الحاجة دائمة فاليوم مثلها.

فيه عظيم أجر من أصيب في أفلاذ كبده إذا حزن ولم يقل قبيحاً، وجاء التنصيص على الرجال؛ فهم مثل النساء في هٰذه المثوبة.

وفيه البداية في التعليم بما تشتد إليه حاجة المتعلم؛ فإن حنان النساء وضعفهن يحملانهن على الجزع الشديد، وقد يخرج بهن إلى القبيح، فذكر لهن ما يكون عدة لهن ووقاية عند نزول المصيبة.

وفيه ما ينبغي من تهيئة القلوب وتحضير النفوس لتلقي التكاليف الشرعية لتنشرح لها الصدور وتنشط فيها الجوارح، ولذا؛ قدم الوعظ على الأمر».

ثم قال تحت عنوان «اقتداء» ما نصه:

«إن الجهالة التي فيها نساؤنا اليوم هي جهالة عمياء، وإن على أوليائهن المسؤولين عنهن إثماً كبيراً فيما هن فيه، وأن أهل العلم والإرث النبوي مسؤولون عن الأمة، رجالها ونسائها، فعليهم أن يقوموا بهٰذا الواجب العظيم في حقِّ النساء بتعليمهن خلف صفوف الرجال، وفي يوم خاص بهن اقتداء بالمعلم الأعظم، عليه وعلى آله الصلاة والسلام»[1] انتهى.

وقد كتب هٰذا العلامة السلفي رحمه الله تعالى كثيراً عن تعليم المرأة، وكان يؤكّد «أن البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخُلُق، والضعف الذي نجده من ناحيتها

(١) «هدي النبوة» (ص ١٣٣) لعبد الحميد بن باديس.
وانظر: «ابن باديس حياته وآثاره» (٢ / ١٩٨ - ٢٠٠).

معظمهُ نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلّة تديّنهن»[1].

ومن كلماته الذهبيّة في تعليم المرأة: «لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل العلم وِردٌ صفاء للرجال ومنهل كدر للنساء؟ هل له تأثيران: حسن على فكر الذكور، قبيح على فكر الإناث؟»[2].

ثانياً: بل قد تسبق المرأةُ الرجلَ في الالتزام، وتفوقه في سعة العلم والاطّلاع، وتكون سبباً في إيقافه على الخير، وتكون مرجعاً عند الخصام والاختلاف.

روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس؛ قال: كنتُ أنا وأُمي من المستضعفين؛ أنا من الولدان، وأمي مع النساء.

وذكر قبل ذلك: «وكان ابن عباس رضي الله عنهما مع أُمه من المستضعفين ولم يكن مع أبيه على دين قومه».

فوالدة ابن عباس سبقت زوجها إلى الإيمان، واسمها: لبابة بنت الحارث الهلالية، وتُكْنَى أم الفضل، فاستجابت لرسول الله ﷺ، وآمنت بدينه قبل زوجها.

وكانت بعض النساء سبباً في إسلام قومها.

ففي «الصحيحين» عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في مسير؛ فأَدْلَجوا (ساروا أوّل الليل) ليلتهم حتى إذا كان وجه الصبح عرّسوا (نزلوا للراحة)؛ فغلبتهم أعينُهم حتى ارتفعت الشمس، فكان أول من استيقظ من منامه أبو بكر، وكان لا يوقظ رسول الله ﷺ من منامه حتى

---

(١) «الشهاب» (م ١١، ج ٨، غرة شعبان ١٣٥٤هـ).

(٢) «المنتقد» (العدد ٨ / ٣٠ محرم سنة ١٣٤٤هـ).

يستيقظ، فاستيقظ عمر فقعد أبو بكر عند رأسه، فجعل يُكبِّر ويرفع صوته حتى استيقظ النبي ﷺ؛ فنزل وصلى بنا الغَدَاة، فاعتزل رجلٌ من القوم لم يُصلِّ معنا، فلما انصرف؛ قال: يا فلان! ما يمنعك أن تصلي معنا؟ قال: أصابتني جنابة، فأمره أن يتيمم بالصَّعيد، ثم صلى وجعلني رسول الله في رَكُوبٍ بين يديه، وقد عَطِشْنا عطشاً شديداً، فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأةٍ سادلة (مرسلة مدلية) رجليها بين مَزَادَتَيْن (أي: قربتين كبيرتين)؛ فقلنا لها: أين الماء؟ فقالت: إيه، لا ماء، قلنا: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: يوم وليلة، فقلنا: انطلقي إلى رسول الله ﷺ؛ قالت: وما رسول الله؟ فلم نملكها من أمرها حتى استقبلنا بها النبي ﷺ فحدثته بمثل الذي حدثتنا غير أنها حدثته أنها مُؤْيِمة (أي ذات أيتام)؛ فأمر بمزادتَيْها فمسح في العزلاوين (فم القربة الذي يفرغ منه الماء)؛ فشربنا عطاشاً أربعين رجلاً حتى روينا، فملأنا كل قربة معنا وإداوة (إناء صغير من جلد) غير أنه لم نسقِ بعيراً، وهي تكاد تَبِضُّ من المِلْء، ثم قال: هاتوا ما عندكم، فجمع لها من الكِسَرِ والتمر حتى أتت أهلها، فقالت: أتيتُ أَسْحَرَ الناسِ، أو هو نبيٌّ كما زعموا؛ فهدى الله ذاك الصِرم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا.

وفي رواية: «فكان المسلمون بعد ذلك يُغيرون على من حولها من المشركين، ولا يصيبون الصرم الذي هي منه؛ فقالت يوماً لقومها: ما أرى هؤلاء القوم يدعونكم عمداً؛ فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها فدخلوا في الإسلام».

فأوقفت هذه المرأة قومها على الخير كل خير، وكان ذلك ببركة لقائها مع رسول الله ﷺ، وإحسانه وصحابته الكرام لها؛ فأسلمت وأسلم قومُها معها.

أما تفوّق النساء العالمات في سعة الإطلاع على الرجال وجعلهن

مرجعاً عند الخصام والاختلاف؛ فالأمثلة عليه كثيرة، ولا سيما في حق أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، وستأتي الإشارة إلى شيء من ذلك لاحقاً، ونكتفي هنا ببعض الأمثلة:

* أخرج البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ. . . الحديث.

* أخرج مسلم في «صحيحه» عن ثمامة بن حزن القشيري؛ قال: لقيتُ عائشة فسألتُها عن النبيذ؛ فدعت عائشة جارية حبشية؛ فقالت: سل هٰذه؛ فإنها كانت تنبذ لرسول الله ﷺ.

فهٰذان مثالان على طلب الرجال السنّة من أزواج رسول الله ﷺ.

وهاك مثالين آخرين على تحكيم النساء عند الاختلاف من قبل فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم.

* أخرج مسلم في «صحيحه» عن طاوس؛ قال: كنتُ مع ابن عباس؛ إذ قال زيد بن ثابت: تفتي أن تصدر (أي: ترجع) الحائض قبل أن يكون آخر عهدها بالبيت؟ فقال له ابن عباس: إما لا؛ فَسَلْ فلانةً الأنصارية هل أمرها بذلك رسول الله ﷺ؟ قال: فرجع زيد بن ثابت إلى ابن عباس وهو يقول: ما أراك إلا صدقت.

* وأخرج البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي سلمة؛ قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده؛ فقال: افتني في امرأةٍ ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة؛ فقال ابن عباس: آخر الأجلين.

قلتُ أنا: ﴿وأُولاتِ الأحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي (يعني: أبا سلمة)، فأرسل ابن عباس

غلامهُ (كريباً) إلى أُم سلمة يسألها؛ فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة فخطبت فأنحكها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها.

ثالثاً: إن النساء يشاركن الرجال في تحقيق المسائل العلميَّة بالمناظرة والمحاورة فيما يلزم من معرفةٍ لأحكام الدين والوقوف على سنة سيد المرسلين ﷺ.

فقد قطعت أمُّ الفضل بنت الحارث خلافاً وقع بين أُناس في صيام رسول الله ﷺ يوم عرفة.

أخرج البخاري ومسلم «صحيحيهما» عن أم الفضل بنت الحارث أن ناساً تماروا (أي: تجادلوا واختلفوا) عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ؛ فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم؛ فأرسلت له بقدحِ لبنٍ وهو واقف على بعيره فشربه.

قال الحافظ ابن حجر: «ومن فوائد الحديث: المناظرة في العلم بين الرجال والنساء».

وقد استوضحت امرأةٌ يقال لها (أم يعقوب) من ابن مسعود عن شيء سَمِعَتْهُ على لسانه، وحاورتْهُ وجادلته فيه؛ حتى تبيَّن لها الحق.

أخرج البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن عبد الله بن مسعود؛ قال: لعن الله الواشمات، والموتشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيِّرات خلق الله.

فبلغ ذٰلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب؛ فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت؛ فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، ومن هو في كتاب الله؟! فقالت: لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما وجدتُ فيه ما

تقول! فقال: لئن قرأته لقد وجدته، أما قرأت ﴿**وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه. قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه. قال: فاذهبي فانظري. فذهبت فنظرت؛ فلم تر من حاجتها شيئاً؛ فقال: لو كانت كذلك ما جامَعْتُها (أي: صاحبتُها).

فلا مانع البتة أن تستوضح المرأة عن أمر دينها، وأن تضع ما تستشكله من مسائل علمية بين يدي علماء ربانيين مشهورين بالصلاح والتقوى والعلم مطالبة بالحجّة والبرهان، ملتزمة بأحكام الشرع وآدابه فيما يلزم من ذلك.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

العِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ بِالتَّمْوِيهِ
ما العِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيهِ

رابعاً: إن النساء شقائق الرجال في تبليغ العلم، وتعليم الكتابة[1]، ورواية الحديث وأدائه، فضلاً عن تحمّله وطلبه ودراسته.

وفي هذا يقول الإمام الشوكاني:

«لم ينقل عن أحدٍ من العلماء بأنه ردّ خبر امرأةٍ لكونها امرأة؛ فكم من سنة قد تلقّتها الأمة بالقبول من امرأةٍ واحدةٍ من الصحابة، وهذا لا ينكره من له أدنى نصيب من علم السنة»[2].

وقال شارح «مُسَلَّم الثبوت»: «يقبل خبر المرأة العادلة من غير مشاركة رجل معها بخلاف الشهادة؛ إذ اشتراط الذكورة فيها بالنص».

ثم قال مدلّلاً على ذلك:

«اقتداءً بالصحابة رضوان الله عليهم، وكفى بهم قدوة، وهم قبلوا خبر

(١) انظر مطلع الفصل الرابع من الكتاب؛ ففيه زيادة بيان وإيضاح حول هذا الموضوع.

(٢) «نيل الأوطار» (٨ / ٢٢).

بريرة قبل العتاق، وخبر عائشة الصِّدِّيقة أم المؤمنين، وأم المؤمنين أم سلمة وغيرهما»[1].

وقد تلمذ كبارُ الصحابة والأئمَّةِ المحدِّثين وكبار العلماء وفطاحلهم، على كثيرٍ من الروايات، وأخذوا عنهن وقبلوا أخبارَهُنَّ، وإليك الإشارة إلى مشاهير من وقع له ذلك:

* الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

هل تجد موطناً أوثق، ومرتقى أسمق، ومنزلة أليق من أن علي بن أبي طالب ـ وهو العَلَم الأشم الذي لا يدانيه أحد في عمله وحكمته وقربه من رسول الله ﷺ وقرابته ـ يتلقى الحديث على مولاة لرسول الله ﷺ كانت تقوم على خدمته، وهي ميمونة بنت سعد؛ فكيف بمن دون علي رضي الله عنه[2]؟

* الإمام محمد بن شهاب الزهري (المتوفى سنة ١٢٤هـ).

روى رحمه الله تعالى عن أكثر من واحدة؛ فروى عن عمرة بنت عبدالرحمن بن سعد بن زرارة الأنصارية المدنية، وهي من المكثرات عن عائشة، (المتوفاة قبل سنة مئة للهجرة)، وأخذ الزهري عنها كثيراً[3].

وروى أيضاً عن (نَدْبة) مولاة ميمونة زوج النبي ﷺ[4].

وروى عن ثلاثة لم يروِ عنهن سواه، وهن: فاطمة الخزاعية، وهند بنت الحارث الفارسية، وأم عبد الله الدوسيَّة[5].

(١) «فتح الرحموت شرح مُسلَّم الثبوت» (١ / ١٤٤ ـ بذيل «المستصفى»).

(٢) انظر: ترجمة ميمونة في «الإصابة» (٧ / ١٧٣)، و«عودة الحجاب» (٢ / ٢٨٦).

(٣) «تهذيب التهذيب» (١١ / ٤٦٦).

(٤) «تهذيب التهذيب» (١١ / ٤٨٢).

(٥) انظر: «المنفردات والوحدان» للإمام مسلم (ص ١١).

* الإمام مالك بن أنس (إمام دار الهجرة) (المتوفى سنة ١٧٩هـ).

روى رحمه الله عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص الزهرية المدنية، (المتوفاة سنة ١١٧هـ)، وهي روت عن أبيها وعن أم ذر، وقيل إنها رأتْ ستاً من أُمهات المؤمنين، وروى عنها جماعة من أهل العلم؛ منهم: الجعيد بن عبد الرحمٰن، وأيوب، والحكم بن عتيبة، وأبو الزناد، ومهاجر بن مسمار، وعبيدة بن نابل وآخرون.

قال العجلي: «تابعية مدنيَّة ثقة»، وقال الخليلي: «لم يروِ مالك عن امرأةٍ غيرها»[1].

* الإمام أحمد بن حنبل (إمام أهل السنة) (المتوفى سنة ٢٤١هـ).

حدث عن أم عمر بنت حسان بن زيد الثقفي.[2].

* القاضي أبو يعلى الفراء (المتوفى سنة ٤٥٨هـ).

سمع من أمة السلام بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة البغدادية، وتكنى أم الفتح، وسمع منها جماعة، وسمعت هي من محمد بن إسماعيل البصلاني وغيره.

قال ابن كثير بعد أن ذكر رواية أبي يعلى الفراء عنها: «وأثنى عليها غير واحد في دينها وفضلها وسيادتها، كان مولدها في رجب في سنة ثمان وتسعين ومئتين، وتوفيت في رجب سنة تسعين وثلاث مئة»[3].

---

(١) «تهذيب التهذيب» (١٢ / ٤٦٤).

(٢) «البداية والنهاية» (١ / ٣٢٨)، ولها ترجمة في «العبر» (٣ / ٤٦)، و«تاريخ بغداد» (١٤ / ٤٤٣)، و«شذرات الذهب» (٣ / ١٣٢).

(٣) «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» (٥٤) لابن الجوزي.

* الإمام أبو سعد السمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢هـ).

ذكر في آخر مشيخته المسماة «التحبير في المعجم الكبير» «النسوة اللوائي كتبتُ عنهن»[1]، ورتب أسماءهن على حروف المعجم، وسرد تسعاً وستين محدثة وراوية للحديث سمع منهنّ أو كَتَبْنَ له إجازةً بمرويَّاتهن.

وقد أثنى عليهن ونعتهن بصفات حميدة، وخصال حسنة في الأخلاق والعبادة والعلم والرواية، فقال مثلاً عن أم سلمة الحسناباذية وأم علي التركية، (المتوفاة سنة ٥٣٩هـ): «امرأة صالحة»[2]، وقال عن أمة الرحمٰن التميمية: «صالحة، معمرة، حسنة السيرة»[3]. وقال عن أمة القاهر القشيرية (المتوفاة سنة ٥٣٠هـ): «امرأة صالحة، مستورة، كثيرة العبادة والخير»[4]. وعن أمة الله القشيرية (المتوفاة ٥٤١هـ): «وكانت من الصالحات المتعبدات»[5]. وعن أم البهاء الأصبهانية: «امرأة صالحة خيرة، وكانت من أهل القرآن، تعلم الصبيان القرآن»[6]. وعن زينب الأصبهانية: «امرأة صالحة عفيفة»[7]، وهي ممن حملها والدها إلى أصبهان لسماع الحديث، كما قال السمعاني، وعن أم خلف الشحامية (المتوفاة سنة ٥٤٧هـ): «امرأة عفيفة، ستيرة، صالحة، عالمة»[8]. وقال عن أم الرضا الأصبهانية: «امرأة صالحة، عفيفة، كثيرة

---

(١) «التحبير» (٢ / ٣٩٦).

(٢) «التحبير» بالترتيب (١١٢٥، ١١٢٧).

(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٣١).

(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٣٢).

(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٣٣).

(٦) «التحبير» (الترجمة ١١٣٥).

(٧) «التحبير» (الترجمة ١١٤٧).

(٨) «التحبير» (الترجمة ١١٥٠).

الخير والعبادة»[1]. وعن أم الفضل المروزية (المتوفاة سنة **٥٤٥هـ**): «امرأة صالحة عفيفة، كثيرة الصلاة»[2]. وعن أم الفضل الكسمانية (المتوفاة سنة **٥٢٩هـ**): «امرأة عالمة فقيهة، صالحة من أهل الخير والدين»[3]. وعن أم البنين الزندخانية (المتوفاة سنة **٥٣٣هـ**): «كانت راغبة في الخير، كثيرة المعروف والإحسان إلى الناس»[4]. وعن أم الخير النيسابورية (المتوفاة سنة **٥٣٣هـ**): «امرأة صالحة من أهل القرآن والخير، وكانت تعلم القرآن للجواري»[5].

والملاحظ في أغلب التراجم المذكورة أنهن من بيوت علم ورواية، وأن لهن صلة بكبار المحدثين والعلماء، فمثلاً؛ ذكر أم خلف الشحامية سعيدة بنت زاهر بن طاهر الشحامي (المحدث المعروف)، وقال: «أكبر أولا شيخنا أبي القاسم»، وقال: «كانت قد أسنَّت وعمرت حتى تفردت برواية قطعة صالحة من الحديث، سمعت جدها أبا عبد الرحمٰن طاهر»، وقال: «كتبتُ عنها أجزاء بنيسابور»[6].

وذكر أيضاً زوجة ابن هٰذا المحدث؛ فقال: «أم أنس ستيك ـ وقيل: ستي ـ بنت أبي الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي»، وقال عنها: «امرأة صالحة، عفيفة، وهي زوجة شيخنا عبد الخالق ابن شيخنا أبي القاسم الشحامي، سمعت جدها إسماعيل بن عبد الغافر...» وذكر

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٦٢).

(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٧٢).

(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٧٥).

(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٨٣).

(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٨٧).

(٦) «التحبير» (الترجمة ١١٥٠).

جماعة؛ قال: «كتبتُ عنها بنيسابور»[1].

وترجم أيضاً لقريبة له؛ فقال: «أم الكرام شريفة ابنة شيخنا الإمام أبي عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي»، ثم قال: «امرأة صالحة من أولاد العلماء، سمعت... وجدها لأمها أبا عبد الرحمٰن طاهر بن محمد الشحامي... وجماعة سواهم»، وقال: «كتبتُ عنها»[2]، وترجم لقريبة أخرى له؛ فقال: «أم السعد فاطمة بنت أبي نصر خلف بن طاهر بن محمد الشحامي»، وقال عنها: «امرأة صالحة، سمعت جدها أبا عبد الرحمٰن الشحامي»، وذكر جماعة، وقال: «سمعتُ منها جزءاً»[3].

ووصف الكثيرات بأنهن من «بيت حديث»، أو «بيت علم»، واستطرد في بعض الأحايين بذكر أقاربهن من العلماء كالأب أو الأم أو الأخ، وذكر أحياناً أن الراوية زوجة فلان، وقد يجمع بين ذٰلك كله؛ فذكر مثلاً تقية بنت أبي القاسم بن عمر الأصبهاني، (المتوفاة **٥٤١هـ**)؛ فقال: «وهي بنت شيختنا أم البهاء فاطمة بنت أبي الفضل ابن أبي سعد ابن البغدادي، وأخت أبي القاسم محمود وزوجة أحمد بن أبي الفتوح الخراساني»[4].

وترجم لأم شماسة جوهر ناز بنت أبي القاسم زاهر بن طاهر الشحامي)؛ فقال: «سمعتُ منها ومن أبيها وعمها وزوجها وأخوتها وأقربائها من قريب من عشرين نفساً»[5].

وقال في ترجمة كل من أم سلمة آمنة بنت أبي طاهر عبد الكريم بن

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٥٨).

(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٥٩).

(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٨٤).

(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٢٩).

(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٣٠).

عبد الرزاق الحسناباذي، وأمة الرحمن جوهر ناز بنت أبي طاهر مضر بن إلياس التميمي، وأم الغافر دردانة بنت أبي عبد الله إسماعيل بن عبد الغافر ابن محمد الفارسي، (المتوفاة سنة ٥٣٠هـ)، وأم الخير عافية بنت الحسين ابن عبد الملك بن منده العبري، (المتوفاة سنة ٥٣٩هـ)، وأم النجم فاطمة بنت أحمد بن عبد الله السوذرجاني (المتوفاة سنة ٥٣١هـ) أنهن من «بيت الحديث»[1].

وقال في ترجمة أمة القاهر جوهر بنت أبي سعد عبد الله بن عبد الكريم القشيري، (المتوفاة سنة ٥٣٠هـ): «حفيدة أبي القاسم القشيري، وهي أخت أبي المكارم عبد الرزاق الذي سمعنا منه، ووالدة شيخنا سعيد الشجاعي»[2].

وفي ترجمة أمة الله جليلة بنت أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري، (المتوفاة سنة ٥٤١هـ): «أخت حرة وسارة»، و«كانت زوجة شيخنا عمر الصفار»[3]. وقال في ترجمة أم البهاء جمعة بنت أبي الرجاء بشار ابن أحمد الصفار: «خيرة من أولاد المحدثين»، و«سمعت... والرئيس أبا عبد الله القاسم بن الفضل بإفادة والدها، وكان ممن رحل وطلب الحديث بنفسه بالعراق وخراسان»[4]. وفي ترجمة أمة الرحيم حرة بنت أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري، (المتوفاة سنة ٥٣٤هـ): «تزوج بها عمر ابن أبي نصر الصفار قبل أختها جليلة»، و«سمعت منها ومن أختها»[5].

وفي ترجمة أم عبد الله حورستي بنت أبي الفتح ناصر بن أحمد

(١) «التحبير» (التراجم على الترتيب: ١١٢٥، ١١٣١، ١١٤٣، ١١٧٧، ١١٨١).
(٢) «التحبير» (رقم ١١٣٢).
(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٣٣).
(٤) «التحبير» (١١٣٥).
(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٣٦).

العياضي السرخسي، (المتوفاة سنة ٥٤٢هـ): «من بيت العلم والحديث، سمعت أباها أبا الفتح العياضي»[1]. وفي ترجمة أم الشمس خجسته بنت أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الوهاب ابن محمد بن منده: «عريقة النسب في الحديث»[2].

وفي ترجمة خديجة بنت أبي سعيد إسماعيل بن عمرو بن محمد البحيري: «من بيت العلم والصلاح والتزكية، سمعت أباها إسماعيل»[3].

وفي ترجمة أم الغافر النيسابورية، (المتوفاة سنة ٥٣٠هـ): «أخت أبي الحسن عبد الغافر، امرأة صالحة، ستيرة، من بيت الحديث، ووالدة شيخنا أبي حفص عمر بن أحمد الصفار، سمعت جدها الأعلى عبد الكريم بن هوازن»[4]. وقال في ترجمة أم الفتوح رابعة بنت أبي معمر بن أحمد اللنباني، (المتوفاة سنة ٥٣٤هـ): «وهي زوجة شيخنا أبي سعد أحمد بن محمد بن أحمد ابن البغدادي الحافظ من بيت الخير وأهله»[5]. وفي ترجمة أم الضياء ست الجليل بنت أبي محمد الحسن بن الحسين الوثابي: «زوجة شيخنا إسماعيل بن محمد الحافظ، امرأة صالحة ستيرة من أهل الخير والعلم»[6].

وفي ترجمة أم نجم -وقيل: أم الفخر- ست العراق بنت أبي مضر عبدالواحد بن مطهر البزاني: «من بيت الحديث وأولاد الكبار والمشاهير، سمعت جدها أبا الفضل المطهر بن عبد الواحد البزاني»[7]. وقال في ترجمة

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٣٨).
(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٣٩).
(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٤٢).
(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٤٣).
(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٤٤).
(٦) «التحبير» (الترجمة ١١٥٣).
(٧) «التحبير» (الترجمة ١١٥٤).

أم العزيز شكر بنت أبي الفرج الإسفراييني: «امرأة من أولاد المحدثين»(١).

وفي ترجمة ضوء النهار بنت الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي: «والدها ممن يضرب به المثل في الحفظ والجمع والرحلة ولقي المشايخ، وهي زوجة أبي الفخر سعد بن محمد بن عبد الواحد العدني»(٢).

وقال في ترجمة طاهرة بنت أبي بكر بن أبي القاسم الخشاب: «امرأة صالحة من أولاد المحدثين»(٣). وفي ترجمة عائشة بنت أبي نصر أحمد بن منصور الصفار: «امرأة صالحة، عفيفة، من بيت العلم وأهله»(٤). وفي ترجمة عفاف بنت أحمد، (المتوفاة سنة **٥٤٤هـ**): «بنت شيخنا أحمد بن محمد بن محمد ابن الأخوة، أخت أبي الفضل عبد الرحيم وأبي الفتح عبد الرحمن»(٥).

وفي ترجمة أم الفتوح عين الشمس بنت المفضل بن المطهر البزاني: «من بيت الحديث والتقدم»(٦).

وكذلك قال في ترجمة أم الكرام ـ وقيل: أم الخير ـ: فخر النساء بنت أبي الفضائل(٧).

---

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٦٠).
(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٦٤).
(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٦٥).
(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٧٠).
(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٧٩).
(٦) «التحبير» (الترجمة ١١٨٠).
(٧) «التحبير» (الترجمة ١١٩٢).

وقد سمع الإمام أبو سعد السمعاني من هؤلاء في العالم الإسلامي المترامي الأبعاد، الشاسع الديار آنذاك، وقد ذكر بعض ما أخذ عنهن من أحاديث ومرويات؛ ففصَّل أحياناً، وأبهم أحياناً، ووصف بعضهن بالإكثار، وبعضهن بالتفرد، وذكر أن آباء بعض المحدثات سافر بها لإسماعها، ولم يكتب له لقيا بعض المحدثات في عصره؛ فاكتفى بالأخذ عنهن إجازة، وهذه قطوف من كلامه تدلل على ما قلناه:

فذكر أنه سمع منهم بأصبهان وهراة ونيسابور وسرخس وهمذان وفوشنج وميهنة ودمشق؛ فقال في ترجمة أم سلمة آمنة بنت أبي طاهر عبد الكريم الحسناباذي: «سمعتُ منها شيئاً يسيراً بأصبهان»(١). وقال في ترجمة تقية بنت أبي القاسم الأصبهانية، (المتوفاة سنة **٥٤١هـ**): «سمعتُ منها بأصبهان فيما أظن جزءاً وضاع سماعي عنها أو لم أنسخ، والله أعلم»(٢). وقال في ترجمة أم النجم الفضلوية زوجة أبي بكر محمد بن أحمد بن علي الخطيب: «سمعتُ منها شيئاً يسيراً بأصبهان في دار زوجها»(٣). وقال في ترجمة أم الرضا ضوء بن أبي شكر الأصبهانية: «كتبتُ عنها بأصبهان»(٤). وقال في ترجمة أم البهاء فاطمة بنت أبي الفضل، (المتوفاة سنة **٥٣٩هـ**) ونعتها بـ«مسندة مكثرة من الحديث»، وذكر أنها روت عن جماعة، وقال: «كتبتُ عنها بأصبهان، وعمّرت حتى مات أقرانها، وتفردت بالرواية عن بعض هؤلاء الشيوخ، فمن جملة ما سمعتُ منها ثلاثة أجزاء من حديث أبي ظفر بن محمد بن العلاء بروايتها عن أبي الفضل الرازي عن أبي القاسم بن فناكي عنه، وسمعتُ منها من «فوائد العيار» ثمانية أجزاء من أول الرابع عشر إلى آخر الحادي والعشرين

---

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٢٥).
(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٢٩).
(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٣٧).
(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٦٢).

على الولاء، والجزء السابع والعاشر من «فوائد أبي بكر المقرىء» بقراءتها على ابن طاهر الثقفي عنه»[1].

وسمع بسرخس بن أم عبد الله حورستي العياضية؛ فقال: «كتبتُ عنها بسرخس»[2] وبهراة من أمة الرحمن التميمية؛ فقال: «كتبتُ عنها بهراة»[3]، وبنيسابور من جماعة، مثل: أمة القاهر القشيرية؛ فقال في ترجمتها: «سمعتُ منها أوراقاً من الحديث بنيسابور»[4]، ومثل أم الغافر النيسابورية، فقال: «كتبتُ عنها بنيسابور»[5]، ومثل عائشة النيسابورية؛ فقال: «كتبتُ عنها تسع وأربعين وخمس مئة، ولا يدري أحرقت أو قتلت في العقوبة، وأكلتها تسع وأربعين وخمسمئة، ولا يدري أحرقت أو قتلت في العقوبة، وأكلتها الكلاب، والله تعالى يرحمها ويكافىء من ظلمها»[6]، ومثل أم الخير النيسابورية، وفصَّل في أخذه عنها؛ فقال: «وكان والدها يسكن خان الفرس، والخان يتعلَّق بأبي الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي، فسمعت منه الكتب المسموعة له، مثل: «الصحيح» لمسلم بن الحجاج، وكتاب «غريب الحديث» لأبي سليمان الخطابي، كتبتُ عنها بنيسابور، ومن جملة ما سمعتُ منها: كتاب «الأربعين» للحسن بن سفيان بروايتها عن عبد الغافر عن ابن حمدان عنه، وجزء من «أمالي الحاكم أبي أحمد الحافظ» بروايتها عن عبد الغافر عنه، وجزآن من «حديث عبدان الجواليقي» الرابع والخامس بروايتها

---

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٨٩).

(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٣٨).

(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٣١).

(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٣٢).

(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٤٣).

(٦) «التحبير» (الترجمة ١١٧٠).

عن عبد الغافر عن إسماعيل بن عبد الله بن ميكال عنه»[1].

وسمع بهمذان من ضوء النهار المقدسية؛ فقال: «سمعت منها أوراقاً من الحديث بهمذان»[2]، وبدمشق من أم العزيز الإسفرائية؛ فقال: «ولدت بصور، فلما صار لها سنتان؛ حملها والدها إلى دمشق وسكنتها»، وقال: «كتبت عنها بدمشق»[3] وبميهنة من أم الرضى راضية بنت أبي سعيد؛ فقال في ترجمتها: «سافر بها والدها إلى العراق وسمّعها الحديث»، وذكر أنها «سمعت بإسفرايين محمد بن الحسين بن طلحة المهرجاني، وبساوة أبا عبدالله محمد بن أحمد الكافحي وغيرهما»، وقال: «وكتبتُ عنها بميهنة»[4]، وكتب بفوشنج عن أم الفضل البلخية[5].

وأجازته غير واحدة من الراويات والمحدّثات مثل: تقية بنت المفضل؛ فقال: في ترجمتها: «لم يتفق أن سمعتُ منها شيئاً، وكتبت إليَّ الإجازة في سنة اثنين وثلاثين وخمس مئة»[6]، ومثل أم الفتح جليلة السجزية؛ قال عنها: «كتبت إليَّ الإجازة في سنة ثلاثين، ولم ألحقها سنة أربعين»[7]، ومن مثل خديجة بنت أبي سعيد النيسابورية؛ قال: «كتبت إليَّ الإجازة في سنة اثنتي عشرة وخمس مئة»[8]، ومثل أم محمد زليخا الأصبهانية؛ قال في ترجمتها: «لم

---

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٨٧).

(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٦٤).

(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٦٠).

(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٤٥).

(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٧١).

(٦) «التحبير» (الترجمة ١١٢٨).

(٧) «التحبير» (الترجمة ١١٣٤).

(٨) «التحبير» (الترجمة ١١٤٢).

يتفق أن سمعتُ منها شيئاً، أجازت لي»(١)، ومثل أم الفتح زينب بنت أبي شجاع شيرويه بن شهردام من أهل همذان؛ قال: «كتبت إلي بالإجازة»(٢).

ومن مثل أم أحمد طرفة بنت عبد الله الكرجية؛ قال عنها: «أجازت لي في سنة تسع وعشرين وخمس مئة، ولم ألحقها في سنة سبع وثلاثين»(٣)، ومثل أم الفتح ظفر بنت أبي نصر الكاتب من أصبهان؛ قال في ترجمتها: «كتبت إليَّ الإجازة في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة»(٤)، ومثل أم الفتوح ظمياء بنت أحمد بن الفضل من أصبهان أيضاً؛ قال: «كتبت إليَّ الإجازة سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة»(٥)، ومثل أم البنين فاطمة بنت عبد الله الجوزدانية من أهل أصبهان؛ قال: «تفردت في وقتها برواية كتاب «المعجم الكبير»، و«المعجم الصغير» للطبراني بروايتها عن ابن ريذة عنه، وكتاب «الفتن» لنعيم بن حماد المروزي بروايتها عن ابن ريذة عن الطبراني عن أبي زيد عبدالرحمن بن حاتم المرادي عنه، كتبت إليَّ الإجازة بجميع مسموعاتها بخطّ غيرها»(٦).

وقد روى أو كتب السمعاني عن بعض هؤلاء أحاديث معدودة؛ فقال في ترجمة أم البهاء الأصبهانية: «كتبت عنها ثلاثة أحاديث»(٧). وقال في ترجمة أم البهاء خجستة الطهرانية: «كتبتُ عنها حديثاً واحداً»(٨). وقال في

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٤٦).

(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٤٨).

(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٦٦).

(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٦٨).

(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٦٩).

(٦) «التحبير» (الترجمة ١١٨٥).

(٧) «التحبير» (الترجمة ١١٣٥).

(٨) «التحبير» (الترجمة ١١٤٠).

ترجمة أم محمد ظريفة بنت أبي الحسن بن أبي القاسم الطبرية: «سمعتُ منها حديثاً واحداً ببلخ»(١)، وكذلك قال عند ترجمته لغيرهنّ إلا أنه أبهم مقدار ما سمع، فقال مثلاً في ترجمة أم محمد آمنة الأصبهانية: «سمعتُ منها شيئاً يسيراً»(٢). وقال في ترجمة أم البهاء خجستة الأصبهانية: «كتبتُ عنها أحاديث يسيرة»(٣). وقال في ترجمة أم الرجاء زبيدة بنت محمد الأصبهانية: «كتبتُ عنها أحاديث»(٤). وقال في ترجمة ست ناز بنت المفضل الأصبهانية: «سمعت منها أحاديث»(٥). وكذلك قال في ترجمة أم العزّستكا بنت محمد الأصبهانية وزاد كلمة: «يسيرة»(٦). وقال في الترجمة التي قبلها ست الناس بنت علي الأصبهانية: «سمعتُ منها قدر ورقتين سنة إحدى وثلاثين»(٧).

وكذلك روى كتباً معينة عن بعضهن، كما سبق التصريح به، وإليك مزيداً من الأمثلة:

فقد صرح بسماعه «جزء لوين» من أم الفتوح رابعة بنت أبي معمر اللنبانية(٨)، وأم الضياء ست الجليل بنت أبي محمد الأصبهانية(٩)، وأم الخير عافية بنت الحسين بن عبد الملك الأصبهانية(١٠)، وسمع أيضاً جزءاً

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٦٧).

(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٢٤).

(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٤١).

(٤) «التحبير» (الترجمة ١١٤٩).

(٥) «التحبير» (الترجمة ١١٥٥).

(٦) «التحبير» (الترجمة ١١٥٧).

(٧) «التحبير» (الترجمة ١١٥٦).

(٨) «التحبير» (الترجمة ١١٤٤).

(٩) «التحبير» (الترجمة ١١٥٧).

(١٠) «التحبير» (الترجمة ١١٧٧).

من «حديث أبي العباس السراج» من أم أحمد فاطمة بنت الحسن البيهقية[١]، وجزءاً من «حديث أبي حفص القلاس» من أم النجم ست العراق العنبرية[٢]، وأبهم ذلك أحياناً واكتفى بقوله: «كتبت عنها أجزاء بنيسابور»[٣].

* الحافظ ابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١هـ).

ذلكم الحافظ ابن عساكر أوثق رواة الحديث وأوسعهم رواية في زمانه؛ حتى لقّب بـ (حافظ الأمة)، كان أخذ الحديث عن مئتين وألف محدث، وعن بضع وثمانين محدثة من النساء، وقد ألف رحمه الله رسالة في سيرهن[٤]؛ فهل سمع الناس في عصر من العصور وهل سمعت أمة من الأمم أن عالماً يتلقى عن بضعٍ وثمانين امرأة عِلْماً واحداً؟ فكم ترى منهنّ من لم يلقها أو يأخذ عنها والرجل لم يجاوز الجزء الشرقي من الدولة الإسلامية، فلم تطأ قدماه أرض مصر، ولا بلاد المغرب، ولا الأندلس، وهي أحفل ما تكون بذوات العلم والرأي من النساء[٥].

* الحافظ أبو طاهر السِّلَفي، (المتوفى سنة ٥٧٦هـ).

روى عن عشرات المحدِّثات، وهو من المكثرين عن الرواة، ومشايخه يزيدون عن الألف شيخ؛ فنقل الصفدي في «الوافي بالوفيات»[٦] أن عدد شيوخه يزيد على ست مئة نفس بأصبهان وحدها، وقد صرح بروايته عن غير

(١) «التحبير» (الترجمة ١١٨٢).
(٢) «التحبير» (الترجمة ١١٥٤).
(٣) «التحبير» (الترجمة ١١٥٠).
(٤) «معجم الأدباء» (٥ / ٤٠ ـ ٤١).
وانظر القسم المطبوع من «تاريخ دمشق» (المجلد الخاص بالنساء).
(٥) «عودة الحجاب» (٢ / ٢٨٦ ـ ٢٨٧).
(٦) (٧ / ٣٥١).

واحدةٍ من مثل تقية بنت غيث.

قال رحمه الله: «أنشدتني تقيَّة بنت غيث بن علي الأرْمَنازيّ الصوريّ المدعوة بـ «ست النِّعم» بالثغر، ولم ترَ عيني شاعرةً سِواها»[١].

قلت: هي تَقِيَّة بنت أبي الفرج غيث بن علي بن عبد السلام بن محمد ابن جعفر السلمي الأرمنازي الصوري، سمع منها أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي وغيره، وهي والدة أبي الحسن علي بن فاضل بن حمدون الصوري.

قال ابن خلكان: «صحبت الحافظ أبا الطاهر أحمد بن محمد السِّلَفي زماناً بثغر الإسكندرية، ذكرها في بعض تعليقه وأثنى عليها، وكتب بخطه: عثرتُ في منزل سكناي؛ فانجرح أخمصي، فشقَّتْ وليدة في الدار من خِرْقة من خمارها وعصبته، فأنشدت تقية المذكورة في الحال لنفسها تقول:

لَوْ وَجَـدْتُ السَّبِيلَ جُدْتُ بِخَدِّي ... عِوَضـاً عن خِمَـارِ تِلْكَ الـوَلِيده
كَيْفَ لِي أَنْ أُقَبِّـلَ رِجْـلاً ... سَلَكَتْ دَهْرَهَـا الـطَرِيقَ المَجِيده»

ويذكر ابن خلكان: «ورأيت بخط الحافظ السلفي أنها ولدت في المحرم من سنة خمس وخمس مئة، وتوفيت في أوائل شوال سنة تسع وسبعين وخمس مئة»[٢].

وروى العماد الأصفهاني في ترجمة السلفي والأبيات الآتية:

وكتب بعض الأفاضل إليها، وقد مدحت نفسها:

وَمَا شَرَفٌ أَنْ يَمْدَحَ المَرْءُ نَفْسَهُ ... وَلَكِـنَّ أَفْعَـالاً تُذَمُّ وَتُمْـدَحُ
وَمَا كُلَّ حِينٍ يَصْـدُقُ المَرْءَ قَلْبُهُ ... وَلاَ كُلُّ أَصْحَـابُ التِّجَـارَةِ تَرْبَحُ

(١) «معجم السفر» (رقم ١٠١).
(٢) «وفيات الأعيان» (١ / ٢٦٦).

وَلاَ كُلُّ مَنْ تَرْجـو لِغَيْبِـكَ حَافِظٌ ... وَلاَ كُلُّ مَنْ ضَمَّ الـوَدِيعَـةَ يَصْلُحُ

فكتبت إليه:

تَعِيبُ عَلَى الإنسانِ إِظْهَارَ عِلْمِهِ ... أَبِالجَدِّ هذا مِنْكَ أَمْ أَنْتَ تَمْزَحُ

فَدَتْكَ حَيَاتِي قَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَنَا ... إِلَى مَدْحِهِم قومٌ وَقَالُوا فَأَفْصَحُوا

ولِلْمُتَنَبِّي أَحْرُفٌ فِي مَدِيحِهِ ... عَلَى نَفْسِهِ بِالحَقِّ وَالحَقُّ وَاضِحُ

أَرُونِي فتاةً فِي زَمَانِي تَفُوقُنِي ... وَتَعْلُوا عَلَى عِلْمِي وَتَهْجُوا وَتَمْدَحُ[1]

ومن مثل ترفة بنت أحمد أسند عنها خبراً، ثم قال:

«ترفة هٰذه بنت العلم، وهي في نفسها كانتْ دينةً، كثيرة المعروف، وتسمى أيضاً عائشة وتدعى ترفة رحمها الله.

قرأنا عليها سنة أربع وثلاثين، وتوفيت بعدها بمدةٍ قريبة رحمه الله عليها، وكانت امرأة الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الخَوْلاني الذي تزوَّجت أنا بعد موته بابنته ست الأهل، المرأة الصالحة الدينة رحمها الله ورحمنا إذا صرنا إلى ما صارت إليه»[2].

ومن مثل الخفرة بنت المبشر؛ أسند عنها خبراً، ثم قال:

«الخفرة هٰذه تدعى «جديدة»، وقد سمعتْ بإفادة أبيها جماعة من شيوخ مصر، وقرأنا نحن عليها عن أبي الحسن بن الطفَّال النيسابوري، وأبي طاهر بن سعدون الموصلي وغيرهم. وتوفيت في جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وخمس مئة، كتب إلي بذٰلك أبو الحسين بن الصَّوَّاف من مصر»[3].

---

(١) «فريدة القصر وجريدة العصر» (قسم شعراء مصر، ٢ / ٢٢٣)، ولها ترجمة في «شذرات الذهب» (٤ / ٢٦٥).

(٢) «معجم السفر» (رقم ١٠٢)، ولها أخت محدثة اسمها خديجة سيأتي التعريف بها عن الحافظ السِّلفي.

(٣) «معجم السفر» (رقم ١٢٠).

ومن مثل خديجة بنت أحمد؛ أسند عنها خبراً، ثم قال: «خديجة هٰذه أبوها محدّث، وأخوها محدّث، وقد حدثت أختها كما حدَّثت هي، ومن شيوخها: ابن عبد الولي، وابن الدَّليل، وأبوها، ولها من أبي الوليد إجازة، وقد قرأنا عليها عن هٰؤلاء كلهم، وأما أختها ترفة؛ فلم نجد لها سماعاً إلا عن أبيها فقط، وتوفيت خديجة في شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين وخمس مئة، وهي بكر لم تتزوج قط، ووصت بأن أُصلِّي عليها رحمها الله ورضي عنها»[1].

ومن مثل رابعة بنت أبي حكيم؛ أسند عنها خبراً، ثم قال:

«هي امرأةٌ صالحة، وأبوها أبو حكيم الخَبْري، كان فرضيّاً مشهوراً بالتقدم في علم الفرائض، وابنها أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي، كان من أهل العلم والأدب، سمعَ معنا كثيراً من الحديث على شيوخ الجانبين، ورفيقه في السماع والقراءة أبو منصور بن الجواليقي، وأبو منصور في الآداب أميز منه رحمهما الله»[2].

هٰؤلاء بعض من روى عنهن الحافظ السِّلَفي الذي قيل فيه: «حافظ الإسلام، وأعلى أهل الأرض إسناداً في الحديث والقراءات مع الدين والثِّقة والعلم»[3]، وإلا؛ فشيوخه من النساء كثيراتٌ جداً، فقد ذكر ابن الأبّار في ترجمته: «أن بعض أصحابه جمع أسماء النساء منهم على حروف المعجم»[4]. وأفاد الذهبي[5] أنه لم يسمع ببغداد من النساء سوى ثماني

---

(١) «معجم السفر» (رقم ١٢١).

(٢) «معجم السفر» (رقم ١٤٥).

(٣) «غاية النهاية في طبقات القراء» (١ / ١٠٣).

(٤) «المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي» (ص ٥٠)، و«فهرس الفهارس والأثبات» (٢ / ٩٩٥).

(٥) في «سير أعلام النبلاء» (٢١ / ١٢).

شيخات .

* الإمام ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧هـ) .

ذكر في آخر «مشيخته»[1] أنه سمع من ثلاث نسوة، وأورد بسنده عنهن ثلاثة أحاديث، عن كل واحدة منهنّ حديثاً :

الأولى : فاطمة بنت محمد بن الحسين بن فضلويه الرازي البزاز.

قال عنها : «كانت شيختنا فاطمة واعظة متعبّدة، لها رباط تجتمع فيه الزاهدات، سمعت أبا جعفر بن المسلمة، وأبا بكر الخطيب وغيرهما، وتوفيت في ربيع الأول من سنة إحدى وعشرين وخمس مئة»[2].

الثانية : فاطمة بنت أبي حكيم عبد الله بن إبراهيم الخَبْرِيّ.

قال عنها : «كانت شيختنا هٰذه خالة شيخنا أبي الفضل بن ناصر، وكانت خيرة، وتوفيت في رجب سنة أربع وثلاثين وخمس مئة»[3].

والأخيرة : شُهْدَة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الإِبْرِيّ، قال : «سمعت شُهْدَة من جعفر بن السراج وطراد وغيرهما، وكان لها خط حسن، وعاشت مخالطة لدار الخلافة، وكان لها بر ومعروف وقاربت المئة، وتوفيت في محرم سنة أربع وسبعين وخمس مئة، ودفنت بمقبرة باب بيرز»[4].

قلت : وتلقّب بـ «فخر النساء» وسمعت الكثير وعمِّرت، وصارت أسند

---

(1) (ص ١٩٨).

(2) «مشيخة ابن الجوزي»، وأفاد في «المنتظم» (١٠ / ٧ ـ ٨) أنه سمع منها بقراءة شيخه ناصر الدين «ذم الغيبة» لإبراهيم الحربي، ومن «مجالس ابن سمعون» بروايتها عن ابن النقود عنه، و«مسند الشافعي» وغير ذٰلك.

(3) «مشيخة ابن الجوزي» (٢٠١)، وانظر : «المنتظم» (١٠ / ٨٨).

(4) «مشيجة ابن الجوزي» (٢٠٢).

أهل زمانها، وسمع منها خلق كثير منهم أئمة مشاهير؛ مثل السمعاني، وابن عساكر، والحافظ عبد الغني، وابن قدامة، والحافظ عبد القادر الرهاوي، وجماعة يطول ذكرهم، ولها مرويات كثيرة[1].

* الحافظ المنذري (المتوفى سنة ٦٥٦هـ) .

لم يقتصر المنذري على الرواية عن الشيوخ من الرجال، بل تعداهم إلى الشيخات من النساء، وهو أمر يدل على أثر المرأة المسلمة في الحياة العلمية ومشاركتها في هٰذا المجال كما قدمنا.

سمع المنذري بفسطاط مصر والقاهرة من صفاء العيش بنت عبد الله الأشرفية الحمزية القصرية المعروفة بشمسة عتيقة القاضي الأشرف أبي القاسم حمزة بن علي بن عثمان المخزومي (المتوفاة سنة ٦٢٧هـ)[2]، والشيخة أم حسن غضيبة[3] بنت عنان بن حميد السعدية (المتوفاة سنة ٦٣٥هـ)[4]، والشيخة الصالحة أم الفضل كريمة بنت عبد الحق بن هبة الله ابن ظافربن حمزة القضاعية الطليبية الشافعية (المتوفاة سنة ٦٤١هـ)[5].

وأخذ عن أم الخير فتوح بنت إبراهيم بن عثمان بن أبي القاسم الشامية المصرية (المتوفاة سنة ٦٢٥هـ)[6]، وعلق فوائد عن الشيخة أم أبي العباس عزيزة بنت عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمٰن القرشية الهاشمية الأندلسية

---

(1) انظر التعليق على «تكملة إكمال الإكمال» (٨٤ ـ ٨٥).

(2) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٣٢٠).

(3) وتدعى عزية وعزيز أيضاً.

(4) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٧٧٦).

(5) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٣١٤٢).

(6) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٢٠٢).

المرسية المولد القرطبية المنشأ (المتوفاة بمصر سنة ٦٣٤هـ)[1].

وسمع من الشيخة الصالحة أم محمد خديجة بنت المفضل بن علي ابن مفرج المقدسية الأصل، الإسكندرانية المولد والمنشأ (المتوفاة بالاسكندرية سنة ٦١٨هـ) وهي أخت شيخه أبي الحسن المقدسي (المتوفى سنة ٦١١هـ).

قال المنذري: «وخرجت لها جزءاً عن جماعة من شيوخها المجيزين لها، وحدثت به، وسمعته منها»[2]، ولعله سمع منها بالإسكندرية.

وسمع بدمشق من الشيخة ست الكتبة نعمة بنت علي بن يحيى بن الطراح البغدادي المدير (المتوفاة سنة ٦٠٤)[3]، ومن الشيخة المسندة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب بن علي بن خضر بن عبد الله بن علي القرشية الأسدية الزبيرية الدمشقية (المتوفاة سنة ٦٤١هـ).

قال المنذري: «وحدثت بالكثير، وقيل أنها حدثت نيفاً وستين سنة، لقيتها ببيت لهيا بظاهر دمشق في الدفعة الثانية، وسمعت منها، وقد كانت أجازت لي في سنة خمس وتسعين وخمس مئة»[4].

وأجازت له بالقاهرة الشيخة أم عبد الكريم فاطمة ابنة الشيخ أبي الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري الأندلسي البلنسي (المتوفاة سنة ٦٠٠هـ).

---

(١) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٧٤٧).

(٢) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٨٠٣).

(٣) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٠٠٨).
وانظر: «ذيل الروضتين» (٦٣)، وما سيأتي (ص ٩٦).

(٤) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٣١٢٥)، وستأتي ترجمته (ص ٨٣ الهامش).

قال المنذري: «وحدثت بدمشق والقاهرة بالكثير، سمع منها جماعة من شيوخنا ورفقائنا، ولنا منها إجازة».

وقد أثنى عليها ثناءً جميلاً، وقال إنها نشرت علماً كثيراً[1].

ومن الاسكندرية أجازته الشيخة خديجة ابنة الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمد بن أحمد السلفي الأصبهانية الأصل الإسكندرانية (المتوفاة سنة ٦٢٣هـ)[2].

وأجازت له من بغداد أم الحياة فرحة بنت قراطاش بن طنطاش الظفري العوني (المتوفاة سنة ٥٩٨)[3]، وأم العلاء عاتكة ابنة الحافظ أبي العلاء الحسن بن أحمد العطار الهمذانية (المتوفاة سنة ٦٠٩هـ)[4]، وهي من المحدثات المكثرات وممن حدثن بالكتب الكبيرة[5]، وأجازت له أيضاً أم عبد الرحمن سيدة الكتبة ابنة أبي البقاء يحيى بن علي بن الحسن الهمذاني الأصل البغدادي (المتوفاة سنة ٦١١هـ)[6]، وأم الحياء حفصة بنت أحمد بن محمد بن منصور بن ثابت بن الحارث بن ملاعب البغدادية الأزجية (المتوفاة سنة ٦١٢هـ)[7]، والشيخة ضوء الصباح لامعة[8] ابنة الشيخ المفيد أبي بكر المبارك بن كامل البغداي الخفاف (المتوفاة سنة ٦١٣هـ)[9]، وقرة العين بنت

---

(١) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٧٧٣)، وستأتي مصادر ترجمتها (ص ٩٢).

(٢) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢١٢٠).

(٣) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٦٨٤).

(٤) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٢٥٣).

(٥) انظر: (ص ٨٩ - ٩٠).

(٦) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٣٠٢).

(٧) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٣٨٢).

(٨) ويقال: «نور العين».

(٩) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٥١٠).

يعقوب بن يوسف بن عمر بن الحسين البغدادية (المتوفاة سنة ٦٢٤هـ)[1]، وأمة الواحد صفية بنت عبد الجبار بن هبة الله بن القاسم بن منصور بن البندار البغدادية (المتوفاة سنة ٦٢٤هـ)، أجازته غير مرة إحداهن في شعبان سنة ٦١٠هـ[2]، وأم الفضل لبابة ابنة الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي الفضل بن أحمد بن مزروع البغدادي الحربي المعروف بابن الثلاجي (المتوفاة سنة ٦٢٥هـ)[3]، وشرف النساء أمة الله ويقال لها آمنة ابنة الإمام أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن الأبنوسي الأنصاري الشافعي (المتوفاة سنة ٦٢٨هـ)، أجازته غير مرة منها ما هو في ذي القعدة سنة ٦٠٨هـ[4]، وأم علي فرحة بنت أبي سعد بن أحمد بن تميرة البغدادية الحربية (المتوفاة سنة ٦٢٩هـ)[5]، وفاطمة بنت أبي بكر بن مواهب بن عبد الملك المعروف بابن زنكي البيع (المتوفاة سنة ٦٣٧هـ)[6]، وأم عثمان صفية بنت عبد العزيز بن هبة الله المعروف بابن حديد الدقاق البغدادية الأزجية الواعظة[7].

وأجازت له من أصبهان الشيخة المسندة أم هانىء عفيفة بنت أحمد بن عبد الله بن محمد الأصبهانية الفارفانية (المتوفاة سنة ٦٠٦هـ)[8]، وهي من العالمات الفاضلات الراويات للسنن والمسانيد[9]، وأثنى عليها الذهبي ثناء

(١) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢١٤٦).

(٢) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢١٤٨).

(٣) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٢١٥).

(٤) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٢٣٠).

(٥) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٣٧٨).

(٦) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٨٩٠).

(٧) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٩٤٩).

(٨) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١١٣٢)، وستأتي ترجمتها (ص ٩٦ - ٩٧).

(٩) «التكملة لوفيات النقلة»، وابن نقطة في «التقييد» (الورقة ٢٣٢)، وقد سمع منها.

عاطراً[1]، وأجازت له منها أيضاً الشيخة أم حبيبة عائشة ابنة الحافظ أبي أحمد معمر بن عبد الواحد بن رجاء بن الفاخر الأصبهانية (المتوفاة سنة ٦٠٧هـ)[2]، وهي محدثة مشهورة من بيت مشهور بالحديث والرواية[3]، وأم النور عين الشمس بنت أحمد بن أبي الفرج الثقفي (المتوفاة سنة ٦١٠هـ)[4]؛ قال: «أجازت لنا جميع مسموعاتها ومجازاتها من أصبهان في صفر سنة تسع وست مئة»[4].

وأجازت له من نيسابور غير مرة الشيخة أم المؤيد زينب[5] ابنة الشيخ عبد الرحمٰن بن الحسن أحمد بن أحمد الجرجاني الأصل النيسابوري الدار الشعري (المتوفاة سنة ٦١٥هـ)[6]، وهي إحدى رواة الكتب الكبار، سمع منها ابن نقطة[7]، وقال الذهبي: «انقطع بموتها إسناد عال»[8]، وأثنى عليها ابن خلكان[9]، والصفدي[10].

كما أجازت له من همذان غير مرة الشيخة فاطمة بنت الحسن بن أحمد الهمذاني (المتوفاة سنة ٦١٧هـ)[11].

(١) انظر: (ص ٩٦ - ٩٧).

(٢) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١١٤٩).

(٣) انظر: (ص ٨٩ - ٩٠).

(٤) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٢٨٨)، وستأتي ترجمتها (ص ٩٧).

(٥) وتدعى «حرة أيضاً».

(٦) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٦٤٨)، وستأتي ترجمتها (ص ٨٦).

(٧) انظر: (ص ٩٠ - ٩١).

(٨) «تاريخ الإسلام» (الورقة ٢١٧، باريس ١٥٨٢).

(٩) «وفيات الأعيان» (الترجمة ٢٣٧).

(١٠) «الوافي» (م ٨، الورقة ١٠٦).

(١١) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٧٧٣).

أما دمشق؛ فقد أجازت له منها سنة ٥٩٥هـ الشيخة أم الفضل زينب بنت إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إسماعيل القيسي، زوج الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعي (المتوفاة بدمشق سنة ٦١٠هـ)[1]، وأجازت له منها أيضاً الشيخة أم محمد رابعة بنت أحمد بن محمد بن قدامة المقدسية (المتوفاة سنة ٦٢٠هـ)[2]، وابنة أخيها الشيخة الزاهدة أمة بنت محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسية (المتوفاة سنة ٦٣١هـ)[3]، وأم الفتيان جهمة بنت المفرج بن علي الدمشقية (المتوفاة سنة ٦٣٨هـ)[4]، والشيخة ستهم ابنة الشيخ المسند أبي طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي (المتوفاة سنة ٦٤٠هـ)[5].

وأجازت له من حران أم الكرام زهراء ابنة الحافظ أبي محمد عبد القادر ابن عبد الله الرهاوي (المتوفاة سنة ٦٣٢هـ)[6].

فالملاحظ أن عناية النساء بالحديث والرواية كانت قد عمَّت سائر أرجاء الأرض، ولم تقتصر على بلدة بعينها.

* الإمام الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨هـ).

أكثر الإمام الذهبي من الأخذ عن جماعة من الشيوخ، وكان نَهِماً ولا سيما في علم رواية الحديث، وكان مِنْ بين مَن أخذ عنه جماعة من النساء

(١) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٢٨٦).

(٢) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ١٩٥١).

(٣) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٥٤٤).

(٤) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٩٦٢).

(٥) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٣١١٢).

(٦) «التكملة لوفيات النقلة» (الترجمة ٢٦٢٢)، وما تقدم من كتاب المنذري وكتابه «التكملة» (ص ١١٨ ـ ١٢٥) للدكتور بشار عواد معروف.

ذكر كثيراً منهن في «معجم الشيوخ»، ونقتصر على ذكر واحدة ممن فاته السماع منها، وكان يتحسر على عدم لقياها، ألا وهي أم محمد سيدة بنت موسى بن عثمان المارانية المصرية (المتوفاة سنة ٦٩٥هـ).

قال رحمه الله تعالى في ترجمتها: «وقد رحلتُ إلى لقيها؛ فماتت وأنا بفلسطين في رجب سنة خمس وتسعين وستّ مئة»[1]، وقال أيضاً: «كنتُ أتلهف على لقيها، ورحلتُ إلى مصر وعلمي أنها باقية فدخلتُ فوجدتها قد ماتت من عشرة أيام، توفيت يوم الجمعة سادس رجب وأنا بوادي فحمة»[2].

ويكفي النسـاء فخراً أن واحدة منهنّ عاش في حضنها مثل هذا الإمام، وشاركت في تعليمه وأرضعته الرواية مع الحليب، ألا وهي ست الأهل بنت عثمان، وكانت قد حصلت على الإجازة من ابن أبي اليسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن عمر الزرعي وجماعة آخرين، وقد روى عنها الذهبي، كما صرح هو بذلك[3].

وسيأتيك في الفصل الثالث من كتابنا هذا إن شاء الله تعالى ما يعجب ويطرب من أخبار حول المحدّثات التي ذكر الذهبي أنه استفاد منهن، أو أخذ عنهن، أو سرد شيئاً من أحوالهن.

* الإمام ابن القيم (المتوفى سنة ٧٥١هـ).

ذكر ابن رجب[4] والداودي[5] أن ابن القيم سمع من فاطمة بنت محمد

(١) «معجم الشيوخ» الترجمة (٣٢٥).

(٢) «تاريخ الإسلام» (ق ٢٤٦).

(٣) «معجم الشيوخ» الترجمة (٣١١).

وانظر: «الإمام الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام» (٧٩ ـ ٨٠).

(٤) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢ / ٤٤٨).

(٥) «طبقات المفسرين» (٢ / ٩١).

ابن الشيخ إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي، وهي محدثة روت «صحيح البخاري» عن ابن الزبيدي مرات، وسمعت «صحيح مسلم» من ابن الحصيري شيخ الحنفية، وسمعت من ابن رواحة، وكانت دينة، متعبدة، صالحة، مسندة، ماتت عن ست وثمانين سنة، توفيت في صفر سنة إحدى عشرة وسبع مئة[1].

*** الإمام ابن حجر العسقلاني (المتوفى سنة ٨٥٢هـ).**

ذكر السخاوي في ترجمة شيخه خاتمة أمراء المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني أسماء شيوخه ورتبهم ثلاثة أقسام:

الأول: فيمن سمع منه الحديث، وذكر من بينهم عشرين امرأة.

الثاني: فيمن أجاز له، وذكر من بينهم ثلاثاً وثلاثين امرأة.

والأخير: فيمن أخذ عنه مذاكرة أو إنشاءً ولم يذكر إلا ست الركب ابنة علي بن حجر أخت الحافظ[2].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر نفسه[3] مجموعة من مشايخه من النساء ممن أجزن له أو قرأ عليهن بعض مصنفات العلماء الأقدمين ولا يتسع المقام لسرد أسمائهن، ولكن في هذا إشارة إلى استمرار مشاركة النساء في الرواية في القرن التاسع الهجري، وستأتيك إشارات من ذلك في الفصل الثالث والرابع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(١) انظر: «شذرات الذهب» (٦ / ٢٨).

(٢) انظر: «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (١ / ١٢٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٩).

(٣) انظر: «المعجم المؤسس» (١ / ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧١، ٥٥٩، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٦١٠، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧).

في أمثلةٍ كثيرة يصعب حصرها، ويعسر استقصاؤها، وكلها تدلل على أن جهابذة العلماء على اختلاف الأمصار ومر الأعصار استفادوا من علم النساء في الحديث، وفي السطور القادمات؛ تلميحات وإلماعات وتصريحات على نحو هذا، والله الموفق لا ربَّ سواه.

*** مفخرة للراويات دون الرواة.**

نختم هذا الفصل بذكر مفخرة للراويات انفردن بها عن الرواة؛ إذ وقع الكذب كثيراً في حديث رجال كثيرين ممن انتسبوا لرواية أحاديث رسول الله ﷺ، أما النساء، فعلى الرغم من كثرتهن في الرواية فلم يقع منهن تعمّد الكذب في الحديث؛ لما لهن من عاطفةٍ جيّاشةٍ تمنعهن من الجرأة على الكذب في حديث رسول الله ﷺ، وهذه شهادة إمام الجرح والتعديل في عصره الحافظ، الناقد، الإمام الجهبذ شمس الدين الذهبي حيث يقول في أول قسم النساء في كتابه «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»[1]: «وما علمت في النساء من اتهمت[2]، ولا من تركوها».

ففي هذه الشهادة مظهر خلقي كريم للنساء المحدثات في العلم والتعليم، فقد امتزن بالصدق والدين والعدالة والأمانة في العلم والرواية، وحسبهن ذلك فخراً، ولم نعثر - مع طول بحث وفتش - على من وصفت من النساء الراويات بالتدليس أو الاختلاط أو التلقين، ولم يذكر من صنّف في هذا الباب أحداً من النساء.

* * * * *

(١) (٤ / ٦٠٤).

(٢) أي: بالكذب.

الفصل الثاني

الراويات في القرون الفاضلات، وبيان منزلة المرأة في العصر النبوي، وذكر نبذ من حال المرأة في الجاهلية قديماً وحديثاً

وقفنا من خلال البحث في كتب التراجم والتاريخ على أن الكريمات من النساء والنجيبات منهن لم يكن لهن في درس الحديث النبوي نصيب فحسب، بل تعداه إلى الخوض في عبابه وتدريسه؛ فكانت لهن مع الرجال يد ظافرة، وسعي غير قليل، ويظهر جلياً في أول نظرة لمن تصفح تاريخ علم الحديث أن المئات بل الألوف من النساء لم تتشرف بدرس علم الحديث فقط، بل كان منهن عدد وافر له باع طويل وصيت ذائع وشهرة طائرة في تدريسه أيضاً لحذقهن فيه، وتضلّعهن منه.

إن النساء المسلمات كنّ فيما خلا من القرون يتحمّلن مشاق ومتاعب طلب العلم وتدريسه بعزيمةٍ راسخةٍ، وذهنٍ ثاقبٍ، وهمّةٍ عالية، ويحضرن حلق دروس الفطاحل، وينلْن شهادات الفضل والثناء من العلماء، بل الحُذّاق من المحدِّثين، وبعض أمراء المؤمنين منهم قد حضروا دروسهن، وعدُّوا ذلك لهم فخراً.

فهذه الفاضلات النبيلات لا يزال الزمان يردد صدى أعمالهن الفخيمة وغزارة علمهن الكريم علناً، فإنْ سكتت ألسنُ قالِهنّ؛ فقد نطقتْ ألسنُ حالِهنّ سرّاً وجهراً، وأصغى العالَم إليهن طرّاً.

تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الآثَارِ

فأيُّ سفر من أسفار الحديث عريٌّ من تذكارهنَّ؟! وأيُّ مكتبة لم تتزيَّن جباهُها بسيرتهنَّ؟!

رُبَّ حَيٍّ كَمَيِّتٍ لَيْسَ فِيهِ أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ
وعِظَامٍ تَحْتَ التُّرَابِ وَفَوْقَ الأ رْضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

إن كتب الحديث بما حوت من سماعاتٍ وإجازاتٍ ومناولات شاهدةٌ على تضلّع كثير من النساء بعلم الحديث وروايته، وطافحةٌ بشهادة فضلهن في التدريس، حتى إن كل من له أدنى قراءة وإلمام بـ «الصحيحين» وشروحهما يرى أن لبعضهن ذكراً في أسانيدهما، بل إن بعضهن ـ من أمثال كريمة وغيرها ـ حللن فيها حلول العقد من الجيد، بل قل: إنهن أصبحن فيها بيت القصيد[1].

*** الراويات في القرون الفاضلات.**

ألمحنا في الفصل الأول إلى أن «النساء شقائق الرجال» في علم الرواية، وضربنا فيه أمثلةً على مشاركتهنّ الرجال في رواية الحديث النبويّ، وأن الرجال كانوا يرجعون إلى النبيلات النابغات منهن عند الاختلاف، وإن كتب التراجم عامّة وكتب الطبقات والصحابة خاصة مليئة بتراجم الراويات في القرون الفاضلات؛ فهذه أمهات المؤمنين بأسرهنَّ بعد انقضاء عهد النبوَّة ثم التابعيات أصبحت سهامهنَّ في رواية الحديث، وسعيهن في بقائه أشهر من أن يذكر، وأكثر من أن يُعَدّ ويحصر، فإن المؤلَّفات الحديثية مثل: «الصحيحين»، و«السنن الأربعة» تجد في أسانيد أحاديثها المئات من

(1) من مقالة كتبها محمد زبير الصديقي سنة ١٩٣٩م بعنوان «السير الحثيث في تاريخ تدوين الحديث»، مطبوعة ضمن كتاب «المباحث العلمية من المقالات السنية» (ص ٢٤٤ - ٢٤٥).

الراويات، وتقف على أسمائهن في آخر «تهذيب الكمال» للمزِّي، وآخر «تهذيب التهذيب»، و«التقريب» لابن حجر العسقلاني، وآخر «الكاشف» للذهبي.

ويجد الباحث والمطلع في المجلدات الأولى من «سير أعلام النبلاء»، وفي آخر كتب الصحابة مثل «أسد الغابة»، و«الاستيعاب»، و«تجريد أسماء الصحابة»، و«الإصابة»، وفي كتب الطبقات مثل: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، و«الطبقات» للإمام مسلم، و«الطبقات» لخليفة بن خياط، وفي كتب تاريخ البلدان مثل: «تاريخ دمشق» ـ وقد طبع القسم المختص بترجمة النساء ـ، و«تاريخ بغداد»، وغيرها ألوفاً من الراويات في القرون الأولى الفاضلات، وكذلك يقال في الكتب الحديثية بأنواعها المختلفة: المسانيد، والمعاجم، والسنن، والأجزاء الحديثية وغيرها[1].

وقد اختلفت هذه الكتب في طريقة ترتيب النساء المحدثات، والمادة التي أوردتها فيها تحت ترجمة كل واحدة منهنَّ، فمنها من فصَّل وأسهب، ومنها من اختصر وأوجز، ومنها من خصَّ الصحابيات بالذكر، ونظمهن مع بعضهنّ بعضاً، على أنَّهن طبقة واحدة، كما فعل خليفة ومسلم في «الطبقات»، فإنهما لم يذكرا غير الصحابيات؛ إلا أن خليفة أفردهن في آخر كتابه، ورتَّبهنّ على أنسابهنَّ، بخلاف مسلم الذي ذكرهم بعد الصحابة مباشرة؛ فقال: «تسمية النساء اللاتي روين عن رسول الله ﷺ من أهل المدينة».

ثم قال: «أولهنّ أزواجه التسع، أمهات المؤمنين اللاتي بقين بعده

(1) مع ملاحظة أن بعض الكتب المذكورة آنفاً لم تختص بترجمة الراويات في القرون الأولى الفاضلات، وإنْ غلب عليها ذلك.

ﷺ»[1]، ثم ذكر بعدهن: «مَنْ حفظ عنه الحديث عن رسول الله ﷺ من أصحابه ممن هلك قبله»[2].

ثم ذكر التابعين وقد رتبهنّ مسلم على أوطانهن، وكانت عنايتهُ بالمحدّثات والراويات أكثر من عناية غيره؛ كخليفة، وابن سعد، وقد بدأ مسلم بالراويات من أهل المدينة، وسرد تسعاً وستين منهن، ثم «والنساء من أهل مكة»، وسرد ثمانياً منهن، ثم «والنساء من أهل الكوفة»، وسرد أحد عشر منهن، ثم «ومن أهل البصرة»، وسرد أربعاً منهن، وختم ذكرهنّ بقوله: «ومن أهل الشام» وسرد ثلاثة منهن، بينما خصَّ ابن سعد المجلد الأخير من «طبقاته» للنساء، مراعياً النسب في الترتيب بينهن، كما فعل خليفة؛ فبدأ بتراجم بيت رسول الله ﷺ، فقدَّم خديجة، فبنات الرسول ﷺ، فعمّاته، فبنات عمومته، فأزواجه ـ وعلى رأسهنّ مرة أخرى خديجة ـ، ثم من تزوجهنَّ ولم يجمع بهنَّ، ومن فارق ﷺ وطلَّق، ومن خطب ولم ينكح، فالمسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، فغرائب نساء العرب المهاجرات المبايعات، ثم نساء الأنصار ـ مقدِّماً الأوس على الخزرج ـ، وختم بأسماء النساء اللواتي لم يروين عن رسول الله ﷺ وروين عن أزواجهن وغيرهم من الصحابة.

ويتضح مما سبق أن تراجم النساء عند ابن سعد ليست مختصة بالراويات ـ وإن وقعت الرواية لكثيرٍ منهن ـ، وأنه رتَّب النساء على صلة قرابتهنّ بالرسول ﷺ والرواية عنه، ولم ينظمهنّ في موطنٍ أو بلدٍ معيَّن، وكذا فعل خليفة بخلاف مسلم[3]، رحمهم الله جميعاً.

---

(١) «الطبقات» (١ / ٢١١ ـ بتحقيقي) للإمام مسلم

(٢) «الطبقات» (١ / ٢٢٥ ـ بتحقيقي).

(٣) انظر تقديمي لكتاب «الطبقات» للإمام مسلم (١ / ٤٠ ـ ٤١).

*** السيدة عائشة رضي الله عنها ومكانتها في علم الرواية.**

ولا يفوتني في هٰذا المقام أن أخصَّ بالذكر أشهر النساء بالرواية، وأجدرهن بالتنويه والعناية، ألا وهي؛ السيدة عائشة رضي الله عنها، فإنها قد عُدَّتْ من المكثرين في رواية أحاديث سيد المرسلين ﷺ، وقد جعل بعضهم المكثرين سبعة، وأنشد فيهم:

سَبْعٌ مِنَ الصَّحْبِ فَوْقَ الأَلْفِ قَدْ نَقَلُوا
مِنَ الحَدِيثِ عَنِ المُخْتَارِ خَيْرِ مُضَرْ
أَبُو هُرَيْرَةَ سَعْدٌ جَابِرٌ أَنَسٌ
صِدِّيقَةٌ وابْنُ عَبَّاسٍ كَذا ابْنُ عُمَرْ[1]

ولا غرو في ذٰلك؛ فلها في الرواية مكان مكين، فقد روت عن رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وفاطمة الزهراء، وسعد بن أبي وقاص، وحمزة بن عمرو الأسلمي، وجذامة بنت وهب (٢٢١٠) حديثاً، أخرج لها منها في «الصحيحين» (٢٩٧)، والمتفق عليه منها (١٧٤) حديثاً، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين ـ وقيل: وسبعين ـ حديثاً، ومسلم بتسعة وستين، وقيل: بثمانية وستين حديثاً.

قال الميانشي في كتابه «ما لا يسع المحدث جهله»[2]: «اشتمل كتاب البخاري ومسلم على ألف حديث ومئتيْ حديث من الأحكام، فروت عائشة من جملة الكتابين مئتين ونيفاً وتسعين حديثاً، لم يخرج عن الأحكام منها إلا يسير».

---

(١) انظر: «تلقيح فهوم أهل الأثر» (ص ٣٦٣)، و«جوامع السيرة» (٢٧٥ ـ ٢٧٦)، و«محاضرات في علوم الحديث» (١ / ١٦٠).

(٢) (ص ٢٨).

قال الحاكم أبو عبد الله: «فَحُمِل عنها ربع الشريعة»[1].

فهي رضي الله عنها كبيرة محدِّثات عصرها، ونابغته في الذكاء والفصاحة والبلاغة؛ فكانت عاملاً كبيراً ذا تأثير عميق في نشر سنة رسول الله ﷺ؛ إذ كانت حاملة لواء العلم والعرفان في عصرها، ونبراساً منيراً يضيء على أهل العلم وطلابه، وكانت تأتيها المشيخة وكبار الصحابة يسألونها عن عويص العلم ومشكله؛ فتجيبهم جواباً مشبعاً بروح التروي والتحقيق مما لا يتسنى إلا لمن بلغ في العلم مقاماً علياً.

قال أبو بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه رضي الله عنه: ما أشكل علينا أصحاب محمد أمر قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

وقال مسروق: رأيتُ مشيخة أصحابِ محمدٍ الأكابر يسألونها عن الفرائض.

وتعدّ عائشة من أبرع الناس في القرآن، والحديث، والفقه، والشعر، وأحاديث العرب وأخبارهم وأيامهم وأنسابهم.

قال عروة بن الزبير (ابن أختها): ما رأيتُ أحداً أعلم بالقرآن ولا بفرائضه، ولا بحلالٍ، ولا بحرام، ولا بشعر، ولا بحديث العرب، ولا بنسب من عائشة.

وقال أيضاً: ما رأيتُ أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة.

وقال ابن عبد البر: «إن عائشة كانت وحيدة عصرها في ثلاثة علومٍ؛ علم الفقه، وعلم الطب، وعلم الشعر».

وقال الزهري: لو جمع علم عائشة بعلم جميع أزواج النبي ﷺ وجميع

---

(١) انظر: «الإجابة» (٥٩) للزركشي.

النساء؛ كان علم عائشة أكثر. وفي رواية: أفضل.

نعم، اجتمع لها العلم على اختلاف أنواعه وضروبه، وفي مقولة ابن أختها عروة ما يلقي مزيداً من الضوء على ذلك؛ قال: ذات يوم لها: يا أُمتاه! لا أعجب من فقهك، أقول: زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول: ابنة أبي بكر وكان أعلم - أو من أعلم - الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب، كيف هو، ومن أين هو؟ قال: فضربت عائشة على منكبه، وقالت: أبا عرية! إن رسول الله كان يسقم عند آخر عمره، فكانت تقدم وفود العرب من كل وجه؛ فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها؛ فمن ثم؟!

وكانت تزورها النساء في بيتها فتعلمهنّ، فهٰذه المرأة المخزومية التي قطعت يدها تقول عنها - كما جاء في بعض روايات حديثها -: «... فكانت تأتي بعد ذلك إلى بيت عائشة تتفقَّه في دينها».

ولا يتسع المقام هنا لسرد مناقبها وفضلها في العلم والفقه، ولكن تكفي الإشارة؛ فهي رضي الله عنها من الراويات الفقيهات المكثرات، فقد ذكرها ابن حزم في رسالته «أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد»[1] في أصحاب الألفين وما زاد عنها؛ فقال: «عائشة أم المؤمنين: ألفا حديث ومئتا حديث وعشرة أحاديث».

وذكرها أيضاً في رسالته «باب في تسمية من روى عنهم من أصحاب رسول الله ﷺ على مراتبهم في كثرة الفتيا فقط»[2] واستفتح بها، مع ملاحظة أن الأساس في الترتيب عنده فيها كثرة الفتيا؛ فقال: «... المكثرون سبعة،

---

(١) (ص ٢٧٦)، مطبوع آخر «جوامع السيرة»، الطبعة الأولى.

(٢) (ص ٣١٩)، مطبوع آخر «جوامع السيرة»، الطبعة الأولى.

ذكرناهم أولاً على الولاء»[1]، فقد قدمها رضي الله عنها على سائر صحابة رسول الله ﷺ، وقسم المفتين في كتابه «الإحكام»[2] ثلاثة أقسام: المكثرين، والمتوسطين، والمقلِّين، وجعل عائشة من القسم الأول؛ فهٰذا كله يدل على مكانتها الكبيرة وجلالتها الفريدة التي تقطَّعت دون مقامها الأعناق، حتى كانت «أستاذة لمشيخة الصحابة الأجلاء في كثير من أمور العلم والدين، وَلَبِثَ الخلفاء الراشدون يرعون منزلتها ويشاورونها ويسألونها المسائل ويرجعون إلى رأيها، وهي واقفةٌ بالمرصاد لكبارهم؛ تصحح لهم كلما رأت خطأً في حديثٍ يحدِّثون به أو حكم يصدرونه، وقد ألَّف الزركشي كتاباً قائماً برأسه، كسره على الأمور التي استدركتها على أعلام الصحابة، ولا بأس بإيرادِ استدراك واحد ـ على سبيل المثال ـ على عبد الله بن عمرو ابن العاص أودعته نكتة لاذعة، كثيراً ما كانت ترسل أمثالها في استدراكاتها عليهم:

بلغها أن ابن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، فقالت: «يا عجباً لابن عمرو؛ يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن؛ أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن؟! لقد كنتُ أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد، وما أزيد أن أُفرغ على رأسي ثلاث إفراغات»[3]»[4].

*** مسرد بأسماء الراويات من الصحابيات وبيان ما لكل واحدة من الأحاديث.**

ولم تقتصر الرواية على السيدة عائشة من النساء الصحابيات؛ فهي

(١) (٣٢٣).

(٢) (٤ / ١٧٦).

(٣) «الإجابة» (ص ١٢٣) للزركشي.

(٤) «الإسلام والمرأة» (ص ٥١) لسعيد الأفغاني.

رضي الله عنها قد حازت فيها مكاناً مرموقاً لم يبلغه سواها، إلا أنَّ ابن حزم ـ مثلاً ـ ذكر أم سلمة أم المؤمنين في (أصحاب المئين) وعد لها ثلاث مئة حديث وثمانية وسبعين حديثاً، وذكر في (أصحاب العشرات وشيء، والعشرات وغير شيء) كلاًّ من أسماء بنت يزيد بن السكن وعد لها واحداً وثمانين حديثاً، وميمونة أم المؤمنين وعد لها ستة وسبعين حديثاً، وأم حبيبة أم المؤمنين وعدَّ لها خمسة وستين حديثاً، وحفصة أم المؤمنين وعد لها ستين حديثاً، وأسماء بنت عُميس وعد لها ستين أيضاً، وأسماء بنت أبي بكر وعد لها ثمانية وخمسين حديثاً، وأم هانىء بنت أبي طالب وعدَّ لها ستة وأربعين حديثاً، وأم عطيَّة وعدَّ لها أربعين حديثاً، وفاطمة بنت قيس وعدَّ لها أربعة وثلاثين حديثاً، وأم الفضل بنت الحارث وعد لها ثلاثين حديثاً، وأم قيس بنت محصن وعد لها أربعة وعشرين حديثاً، والرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ وعد لها واحداً وعشرين حديثاً، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ونظمها تحت عنوان (أصحاب الثمانية عشر)، وخولة بنت حَكِيم وأوردها تحت (أصحاب الخمسة عشر)، وأم سُلَيم بنت مِلْحان ونظمها تحت (أصحاب الأربعة عشر)، والشِّفاء بنت عبد الله العَدَويَّة، وسُبَيْعَة الأسْلَميَّة تحت (أصحاب الاثني عشر)، وزينب بنت جحش أم المؤمنين، وضُباعة بنت الزُّبير بن عبد المطَّلب، وبُسْرة بنت صفوان تحت عنوان (أصحاب الأحد عشر)، وصفيَّة أم المؤمنين، وأم مُبَشِّر، وأم كُرْز، وأم هشام بنت حارثة الأنصاريَّة، وأم كلثوم، وأم مَعْقل الأسَديَّة في (أصحاب العشرة)، وأم الحُصَين، وخولة بنت قيس، وزينب امرأة ابن مسعود، وخنساء بنت خِدَام، والفُرَيْعة بنت مالك، وأُمَيْمَة بنت رُقَيقة في (أصحاب الثمانية)، وأمة بنت خالد أم خالد، وأم حرام بنت مِلْحان، وجُوَيْرِيَة أم المؤمنين، وزينب بنت أُم سلمة أم المؤمنين، وسَلْمى مولاة رسول الله ﷺ في (أصحاب السبعة)، وأم جُنْدُب وهي والدة سُلَيم ـ أو سليمان ـ ابن عمرو، وأم العلاء في (أصحاب الستة)، وأم بُجَيد، وأم الدَّرداء، وسَوْدَة أم

المؤمنين، وصفيَّة بنت شَيْبَة، وأم أيمن في (أصحاب الخمسة)، وأم ضَبَّة، وبنت ليلى، وأم المنذر، وبنت كَرْدم، وأم حبيبة بنت سهل في (أصحاب الأربعة)، وأم أيُّوب، وأم جميل وهي أم محمد بن حاطب، وأم فَرْوة، والصَّمَّاء بنت بشر، وفاطمة بنت أبي حُبَيْش، وأُنَيْسة، ودُرَّة بنت أبي لهب، وأم سعد، وسلامة، وميمونة بنت سعد في (أصحاب الثلاثة)، وأم طارق، وخولة بنت إلياس، وسهلة بنت سُهَيل، وأم عُمارة، وأم عبد الله بنت أوس، وأم الحَكَم، وعائشة بنت قُدامة، وأم وَرَقَة، والسَّوداء، وجُذَامة بنت وَهْب، وميمونة مولاة النبي ﷺ، وأم بشير بنت البراء ابن مَعْرُور، وأم زياد، وأم عبدالرحمن بن طارق، وأم مَعْبد، ومارية مولاته ﷺ، وأُمَيْمَة في (أصحاب الاثنين)، وسَانِيَة مولاة رسول الله ﷺ، وجميلة بنت أُبَيّ بن سَلُول، وخديجة أم المؤمنين، وأم شَريك، وأم مالك البهزيَّة، وبُقَيرة امرأة القعقاع، وخولة بنت الصامت، وأم نصر، وسلامة بنت مَعْقِل، وأم كَبْشة، وكَبْشَة، وجَمْرة بنت عبدالله اليربوعيَّة، وأم عثمان بنت سفيان، والشَّمُوس بنت النعمان، وسَرَّاء بنت نَبْهان، وليلى بنت قَانِف الثَّقفيَّة، وأم سُنْبُلة، وبَرَيْرة مولاة عائشة أم المؤمنين، وأُم جميلة، ونَدْبَة، وعَزَّة بنت خَابِل، وأم سليمان بنت حكيم، وقُتَيْلة، وأم أنس، وأم خالد بنت الأسود، وأم هانىء الأنصارية، وأم حُمَيد، وقَيْلة (أخرى)، وأم فَرْوَة، وبَرْوَع بنت واشِق، وسَلْمى، وخَيْرة امرأة كعب بن مالك، وأم إسحاق، وحُبيبة بنت أبي سَبْرَة، وأم سعد خَالِدة بنت أنس، وطعمة ـ أو: طُعَيْمة ـ بنت جزء أو ـ جر ـ، وأم مالك البَهْزِيَّة، وأم هِلال بنت بلال الأسلمية، وأم الحجاج (سرية أُسامة)، وأم رُومان، وأُم الصَّهْباء، وأم الطُّفيل امرأة أُبَيّ بن كعب، وحَمْنَة بنت جَحْشٍ، وأم عامر، وحُبيبة بنت أبي تَجْرأة، ورُقَيْقة، وبنت حمزة بن عبد المطَّلب في (أصحاب الأفراد)(١).

(١) من رسالة ابن حزم «أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد» مطبوعة آخر «جوامع السيرة». وكذا في كتاب «بقي بن مخلد ومقدمة مسنده» لأكرم العمري، ونقلها ابن =

فهؤلاء الصحابيات رضوان الله عنهن كنَّ قسيمات عائشة في إذاعة العلم وإفاضة الدين على المسلمين، ويؤكد ذلك أن لهن كثيراً من الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ، وهناك أيضاً كثير من الأقوال تنسب إليهن في التفسير والفقه والحديث، وهذا كله يدلل على أن المرأة المسلمة أقبلت على العلم منذ أكرمها الله تعالى بالإسلام، وأنها في بعض الأحايين تجاوزت علوم فرض العين إلى فروض الكفاية.

*** المرأة في عصر النبوّة ومقارنة بينها وبين الجاهلية قديماً وحديثاً.**

هذه هي المرأة في القرون الفاضلة؛ اعتبرت بعد إهمال، واهتدت بعد ضلال، وعزت بعد ذل، وتعلّمت بعد جهل، وأدّت ما عليها من واجبات، وأخذت تتطلع لما لها من حقوق، وهي تدرس القرآن العظيم، وتعاليم النبي الكريم ﷺ، ما ضلَّ من أخذ بهما واستنار بنورهما، فهما مُبدّدا الظلام ومُنوِّرا النُّهى والأحلام، ومُذَوِّبا الأدران والآثام، فلما أقبلت المسلمات عليهما؛ استنارت عقولهُنَّ، وَصفَتْ قلوبهُنَّ، كيف وهُنَّ يتْلُنَّ قول الله تعالى: **﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ﴾**(١)، ويقرأن قول رسول الله ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»(٢)؛ فلا غرو أن يزاحمن الرجال على الكتاب والسنة؛ تعلّماً وتعليماً، وحفظاً وفهماً وتفهيماً، على وجه مدهش بهرت به الأنفس عجباً وإعجاباً، ووقف المؤرّخون والمترجمون تجاهه بالإشادة بالمرأة إشادة ما كانت تخطر لهن ولو في الحلم، كيف لا والله عز وجل وضعها في بعض الأحايين في مقام صُفَّتْ فيه مع الصِّدِّيقين من سادة الدنيا وهداة العالم؟! فجعل الملائكة تخاطبهن، وبشراه سبحانه تساق إليهن، والوحي من السماء يربط جاشهن ويشدّ على قلوبهن.

= الجوزي في «تلقيح فهوم أهل الأثر».

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) مضى تخريجه (ص ١٢).

﴿وإذْ قالَتِ المَلاَئِكَةُ يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالمينَ﴾[١].

﴿إذْ قالَتِ المَلاَئِكَةُ يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسمهُ المَسِيحُ عيسى ابنُ مَرْيَمَ﴾[٢].

﴿إنَّما أنَا[٣] رَسُولُ رَبِّكِ[٤] لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾[٥].

﴿وبَشَّرُوهُ[٦] بِغُلامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قَالُوا[٧] كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾[٨].

﴿وامرأتُهُ[٩] قائمةٌ فضحكتْ فَبَشَّرْنَاها بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسحاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شيخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا[١٠] أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[١١].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ﴾[١٢].

---

(١) آل عمران: ٤٢.

(٢) آل عمران: ٤٥.

(٣) أي: الملك.

(٤) أي: مريم عليها السلام.

(٥) مريم: ١٩.

(٦) الملائكة لإبراهيم.

(٧) أي: الملائكة.

(٨) الذاريات: ٣٠.

(٩) أي: امرأة إبراهيم.

(١٠) أي: الملائكة.

(١١) هود: ٧٠.

(١٢) القصص: ٦٠.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ[١] مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي اليَمِّ﴾[٢].

استعادت المرأة في عصر الرسول ﷺ وما بعده هذه الآيات على سمعها تالية لها ومرتلة، ممعنة النظر في معانيها وما تضمنته من مقام كريم للمرأة في أشخاص مريم (أم عيسى)، وزوج إبراهيم، وأم موسى، فعلمت قيمتها، واستحضرت منزلتها قبل عصر النبوة؛ فحمدت للإسلام تمجيده لها وإعزازه، وشكرت داعيته الأول بتنويهه بها وهدايته، فلم تترك الرجال ينفردون بشيء دونها، فكما أنها تابعت الدين الجديد في جميع مراحله إيماناً وعذاباً في سبيله، وهجرة له ودعوة إليه باللسان والسيف في نفسها ومع عشيرتها من زوجٍ وولدٍ وأهل، في غيرة وحماس واستماتةٍ وتفرغ له ليلها ونهارها، سفرها وحضرها، إقامتها وهجرتها، عذراء وزوجاً وأمّاً؛ فبارت الرجال وسبقتهم أحياناً، فكان أول المؤمنين منها، وأول الشهداء في سبيل الله منها، كانت كذلك في نشر الدين وحفظه والإقبال عليه وتبليغه؛ فعرف منهم أصحاب الألوف والمئين والعشرات من أحاديث سيد المرسلين ﷺ، وتقدّمت بهن الحال، وازدادت المرأة المسلمة ثقة بالنفس، واعتزازاً بالمقام، وغبطة بالإسلام؛ فوُجِد منهم الواعظات، والعالمات، والفقيهات، والمحدِّثات على مر الدهور واختلاف العصور، في سائر البقاع والأصقاع، ووجدت نفسها بعد تيهٍ وضياع، وانتقلت من حالٍ إلى حال؛ من حالٍ كانت فيه زرية مهانة في الأسرة والمجتمع، طفلة وشابة، لا حق لها ولا كرامة، لا يعتدّ بها في رأي ولا وجود، استعبدها الرجال في ذلّةٍ وامتهان، وإنْ سألت لا تجاب، وإنْ احتيج إليها فللسقي والاحتطاب والتقاط النوى للإبل وتغذية الكلاب، فإن تسامت؛ فلإبراد غلّة الشهوات في ازورار ونظرات شزرات، يوم خروجها

---

(١) أي: موسى عليه الصلاة والسلام.

(٢) طه: ٣٥.

للدنيا يوم تسْوَدّ فيه الوجوه، وتغتاظ فيه النفوس في حيرة واضطراب، أتمسك على هوانٍ أم تدس في التراب؟! بشرى البشير بها سخط وإغضاب، وبشراها هي الدّفن حية في التراب، عقولٌ فارقها رشْدُها لطول عهدها بنور السماء وهدي الأنبياء، رجال صنعتهم الوثنية وربَّتهم الكهانة، فغمَّ صفاء أصولها؛ فأصبحت فصاحة ألسنتها وكرم أيديها وشجاعة أبدانها بروقاً تومض، ولا تضيء وترعد ولا تمطر.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُوْنٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[1].

﴿وَإِذَا الْمَوْؤدَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[2].

قال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت؛ فكان أوان ولادها حُفِرت حفيرة، فتمخَّضت على رأس الحفيرة، فإنْ ولدت جارية رَمتْ بها في الحفيرة، وإنْ ولدت غلاماً حبسته[3].

قال المفسرون في الآيتين الأوليين: «هٰذا صنيع مشركي العرب، كان أحدهم إذا ضرب امرأته المخاضُ توارى إلى أن يعلم ما يولد له، فإنْ كان ذكراً سُرَّ به، وإنْ كانت أُنثى لم يظهر أياماً يُدَبِّر كيف يصنع في أمرها، **﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُوْنٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾**[4].

ويقول قتادة: كان أحدهم ـ أي: أهل الجاهلية ـ يغذو كلبه ويئد ابنته[5].

(١) النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) التكوير: ٨ ـ ٩.

(٣) «زاد المسير» (٩ / ٤٠).

(٤) «زاد المسير» (٤ / ٤٥٨).

(٥) وما أشبه ذلك بفعل الغربيين اليوم، وحينما يبتعد الإنسان عن منهج الله سبحانه، تغيب الروابط الدينية بينه وبين أعزّ الناس عليه، فراح يبحث عن الارتباط بالحيوانات، ويسكنه

ويقول السدي: «كانت العرب يقتلون ما ولد لهم من جارية؛ فيدسونها في التراب وهي حية».

ويصف عمر بن الخطاب قومه في أسى واكتئاب: كنا في الجاهلية لا نعتد بالنساء، ولا ندخلهن في شيء من أمورنا، بل كنا ونحن بمكة لا يكلم أحدنا امرأته، إذا كانت له حاجة سفع برجليها فقضى منها حاجته، فلما جاء الله بالإسلام؛ أنزلهن الله حيث أنزلهن وجعل لهن حقاً[1].

انتقلت النساء من هٰذا الحال إلى حال أصبحن فيه منارات هدى، ومراكز إشعاع ونور، معلِّمات ومربِّيات، صالحات ومصلحات وداعيات، يرجع إليهن في المشكلات والمعضلات، ويتخرج من تحت أيديهن الأبطال والعلماء والحكماء، وإليك أمثلة على ذلك[2]:

ـ أخرج الطبراني بإسنادٍ حسن[3] أنَّ سُعْدى (زوجة طلحة بن عبيد الله) قالت: دخلتُ يوماً على طلحة؛ فرأيتُ منه ثقلاً، فقلتُ له: ما لَكَ؟ لعلَّك رابك (أي: أزعجك) منا شيء فَنُعْتِبُكَ (أي: نرضيك). قال: لا، ولَنِعْم

بيته ومنزله، ويقدِّم لها أفخر أنواع الطعام والشراب، وفي الوقت نفسه يئد ابنته ـ في الجاهلية الغابرة ـ ويذهب بأبيه وأمه إلى ملاجىء العجزة ـ في الجاهلية الحاضرة ـ؛ فيا حسرتاه! على من يطرح أباه من بيته ويتخذ عوضاً عنه كلباً أو قطّاً، وفي الوقت الذي ينادي به هٰؤلاء بالرفق بالحيوان تجدهم يحتقرون الإنسان؛ فالأسود في أمريكا وفي جنوب إفريقيا يعدُّونه أحطّ منزلة من الحيوان، وهكذا فإنّ الإنسان عندما يبتعد عن منهج الله ـ عز وجل ـ يتناقض في تصرفاته تناقضاً كثيراً.

(١) انظر الآيات السابقات في «الدر المنثور» (٤ / ١٢١)، و«كنز العمال» (رقم ٤٦٧٤ و٤٦٧٩).

(٢) هٰذه الأمثلة مأخوذة من كتب تراجم المذكورات «الإصابة»، و«أسد الغابة»، و«الاستيعاب»، و«التهذيب»، وهي مرتبة على حروف المعجم.

(٣) كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٩١٢).

حليلة المرء المسلم أنت، ولكن اجتمع عندي مال، ولا أدري كيف أصنع به.

قالت: وما يَغُمُّكَ منه؟! ادعُ قومك فاقسمه بينهم.

فقال: يا غلام! عليَّ بقومي.

فسألت الخازن: كم قَسَم؟ قال: أربع مئة ألف.

- استشار عبد الله ابن الزبير أمه أسماء في حرب الحجاج وأميره عبدالملك وقد دعاه هٰؤلاء للاستسلام في أمان؛ فأجابت: إنْ خرجتَ لإحياء كتاب الله وسنَّة نبيِّه؛ فإنَّ الشاة لا تعذب بالسلخ؛ فمت على الحق، وإنْ كنت إنما خرجت على طلب الدنيا؛ فلا خير فيك حياً ولا ميتاً، يا بني! مت كريماً ولا تستسلم[1].

- خنساء بنت عمرو السلميَّة الشاعرة المسلمة المشهورة، حضرت حرب القادسية ومعها بنوها (أربعة رجال)؛ فحرَّضتهم على القتال، ونصر الإسلام إلى أن قتلوا، فلما بلغها الخبر؛ قالت: الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في جنَّته.

- عفراء بنت عبيد النجارية، لها سبعة أولاد رجال شهدوا كلهم بدراً مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

- حواء بنت يزيد الأنصارية، كان زوجها قيس بن الحطيم الشاعر يصدها عن الإسلام ويؤذيها ويسخر منها، ويأتيها وهي راكعة فيكشفها، ويضع ثيابها على رأسها، ويأتيها وهي ساجدة؛ فيقلبها على رأسها ويقول لها: إنك لتؤمنين بدين لا يُدرى ما هو؟

---

(١) «المستدرك» (٤ / ٥٢٥).

- أم شريك القرشية، أسلمت ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرّاً، فتدعوهنّ وترغبهنّ في الإسلام حتى ظهر أمرها لأهل مكة؛ فأخذوها وعذَّبوها بالتجويع والتعطيش أياماً، وتركها حتى حر الهاجرة والشمس، ثم قالوا: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا.

هٰذه نماذج من دعوة المرأة المسلمة في القرون الفاضلة لدنيها وصبرها عليه، وتربيتها لأبنائها التربية الصالحة في القرون الفاضلة، وما كان ذٰلك كله إلا بسبب العلم ونبذ الجهل.

* **إنَّ في ذٰلك لعبرة.**

في سنة (١٥٦٧) ميلادية صدر قرار من البرلمان الاسكوتلاندي بأن المرأة لا يجوز أن تمنح أي سلطة على أي شيء من الأشياء.

وأغرب من هٰذا كله أن البرلمان الإنجليزي أصدر قراراً في عهد هنري الثامن (ملك إنجلترا) يحظر على المرأة أن تقرأ كتاب العهد الجديد، أي: يحرم عليها قراءة الأناجيل، وكتب رسل المسيح؟!

فأين هٰذا من وضع الصحابة المصحف الأول الذي كتب في خلافة أبي بكر عند امرأة وهي حفصة أم المؤمنين[1]؟!

أين هٰذا من أمر رسول الله ﷺ الشِّفاء بنت عبد الله بتعليم الكتابة لحفصة[2]؟!

---

(١) انظر: «المصاحف» لابن أبي داود.

(٢) أخرج ذلك الحاكم في «المستدرك» (٤ / ٥٦ - ٥٧) عن رجل من الأنصار، وله شاهد من حديث الشفاء، أخرجه النسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١ / ٣٣٦)، وأبو داود في «السنن» (رقم ٣٨٨٧)، وأحمد في المسند (٦ / ٣٧٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢ / ٣٨٨)، وآخر من حديث حفصة، أخرجه أحمد في «المسند» (٦ / ٢٨٦)، =

أين هٰذا من كتابة عائشة بنت طلحة للناس في الأمصار على سمع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبصرها؟!

أخرج البخاري في «الأدب المفرد»[1] بسنده الصحيح عن موسى بن عبد الله؛ قال: حدثتنا عائشة بنت طلحة؛ قالت: قلت لعائشة ـ وأنا في حجرها ـ، وكان الناس يأتونها من كل مصر؛ فكان الشيوخ ينتابوني لمكاني منها، وكان الشباب يتأخون فيهدون إليَّ، ويكتبون إليَّ من الأمصار؛ فأقول لعائشة: يا خالة! هٰذا كتاب فلان وهديته، فتقول لي عائشة: أي بنيَّة! فأجيبيه وأثيبيه، فإن لم يكن عندك ثواب أعطيتك، قالت: فتعطيني.

فبينما كانت المرأة في الغرب ذليلة مهانة مستعبدة؛ فالدين النصراني الـذي يدين به العالم الغربي يرى أن المرأة ينبوع المعاصي وأصل السيئة والفجور، ويرى أن المرأة للرجل باب من أبواب جهنم من حيث هي مصدر تحركه وتحمله على الآثام، ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء، وترى النصرانية أن العلاقة بالمرأة رجس في ذاتها، وترى أن السمو لا يتحقق إلا بالبعد عن الزواج.

مجتمع يدين بهٰذه النظرة المقيتة لا يمكن أن ينصف المرأة ويضعها في موضعها اللائق بها، ولا يمكن أن ينظر إليها نظرة تكريم[2].

فبينمـا المـرأة في الغـرب كذٰلـك؛ كانت المـرأة في ديار الإسـلام والمسلمين وبتوجيهٍ من رب العالمين وهدي سيد المرسلين مصانةً عزيزة، سبقت الرجال جميعاً للدين الحق، فكانت خديجة بنت خويلد زوج الرسول

= والطحاوي والحاكم في «المستدرك» (٤ / ٤١٤) وهو صحيح.

انظر: «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٧٨).

(١) (رقم ١١١٨).

(٢) «المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم» (٣١).

ﷺ أول مستجيب ومؤمن ومشجع، كانت تقوِّي قلبه لتلقِّي ما أنزل الله عليه، وتهوِّن عليه أمـر الناس، ثم تتابعت النساء بعدها: أسماء بنت أبي بكر، وفاطمـة بنت الخـطاب، وأسماء بنت مخربة التميمية زوج عياش بن أبي ربيعة، وفاطمة بنت المجلل زوج حاطب بن الحـارث، وفكيهة بنت يسار زوج حطاب بن الحارث، ورملة بنت أبي عوف زوج المطلب بن أزهر، وأمينة بنت خلف امرأة خالد بن سعيد، وكل هٰؤلاء أسلمن قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وبإسلامه تم عدد المؤمنين أربعين[1].

وفي هٰذا إشارة إلى مكانة المرأة في الإسلام من أول ظهوره؛ فإن لها فيه سابقة ما بلغها كثير من الرجال، وإنَّ لها فيه منزلة ومقام لا يستطيع المداد ولا البنان إعطاءه حقَّه، ويكفينا إشادةً بمقام المرأة في الإسلام ومنزلتها منه مشـاركتهـا في إمـامـة أعظم شعيرة من شعائره: (إمامة الصلاة)؛ فرائضها ونوافلها، وفي حياة رسول الله ﷺ وبعلمه، وفي طليعة هٰؤلاء أُمهات المؤمنين.

قالت ريطة الحنفية: إن عائشة أم المؤمنين أمتهنّ في صلاة الفريضة.

وقالت تميمة بنت سلمة: أمَّت عائشة نساء في الفريضة في المغرب وقامت وسطهن وجهرت بالقراءة.

وقـال يحيى بن سعيد: كانت عائشـة تؤم النساء في التطوع، وتقوم وسطهنّ في الصف.

وقالت حجيرة بنت حصين: أمَّتنا أم سلمة أم المؤمنين في صلاة العصر وقامت بيننا.

وقالت خيرة بنت أبي الحسن: كانت أم سلـمة تؤمهنّ في رمضان وتقوم

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٤٧ ـ ٥١).

معهنّ في الصف.

وكان ابن عمر يأمر جارية له تؤم نساءه في ليالي رمضان.

وقال ابن عباس: تؤم المرأة النساء في التطوع، تقوم وسطهنّ[1].

في هذه الآثار ـ وكثير مثلها في مشروعية الإمامة النسويَّة التي قامت بها أمَّان من أمهات المؤمنين، ودعا لها وأمر بها صحابيان من أعلام عصر النبوَّة ـ إشارة إلى حق مشاركة المرأة في التعليم والتوجيه؛ فلا قياس بين حقوق المرأة في الإسلام وغيره، فإن الإسلام رفعها ونفعها، وغيره من المبادىء والحضارات أضرَّ بها ووضعها، وتفنَّن في استغلالها وتحصيل المتاع الرخيص منها على أشكال شتَّى، فبينما كان الرجال في بريطانيا ـ مثلاً ـ في القرن الثامن عشر (أي: قبل مئتي سنة تقريباً) يبيعون زوجاتهم إلى أن صدر قانون يحرم ذلك في عام (١٩٣٠م)، وكان رجال أيضاً في بلاد الأرياف الإنجليزية يبيعون نساءهم بثمن بخسٍ جداً، وهذا ما شهد به الفيلسوف هربرت سبنسر الإنجليزي في كتابه «علم وصف الاجتماع»[2].

ومن الغرائب هذا الخبر الذي نقلته مجلة «حضارة الإسلام»[3] عن إحدى وكالات الأنباء من ريجيو كالابريا في إيطاليا مفادُهُ: إن شخصاً أقدم على قتل آخر، ولما سئل في التحقيق عن سبب اقترافه هذه الجريمة أفاد بأنه قد اتفق مع القتيل بيعه زوجته بمبلغ (خمس مئة وسبعين) جنيهاً استرلينياً، وقد دفع منه (أربع مئة) جنيه، ومضت مدة طويلة دون أن يدفع باقي الحساب،

(١) انظر هذه الآثار وغيرها في «المحلى» (٣ / ١٢٦ ـ ١٢٨)، و«سنن الدارقطني» (١ / ٤٠٣ ـ ٤٠٥).

(٢) انظر تفصيل ذلك في «نداء للجنس اللطيف» لمحمد رشيد رضا (٢٦)، و«المرأة بين الفقه والقانون» (٢١١).

(٣) (المجلد الثاني، ص ١٠٧٨، سنة ١٩٦٢م).

ولما طالبه تهرب من الدفع، وأقدم على قتله.

أصبح الغرب الكافر بعد عقود وسنوات يستخدم المرأة مصيدة لجمع المال، ومطيةً لتحصيل المتعة واللذة، وكل ذلك يتم باسم (حرية المرأة)! و(تحرير المرأة)!

مسكينة المرأة في عالم الكفر، تنتقل من استعباد إلى استعباد، ومن ظلم إلى ظلم، فكانت بالأمس تباع وتشترى سلعة رخيصةً، وأصبحت اليوم تستغل في الدعاية للمنتوجات والسلع المختلفة؛ إلا أن بعض العاقلات منهن بدأن يشعرن بالسقوط أمام قدمي الرجل ونفسيته الجشعة، فقد نشرت جرائد العالم في العام الماضي أنَّ ممثلة فرنسية بينما كانت تمثل مشهداً عارياً أمام (الكاميرا) ثارت ثورةً عارمةً، وصاحت في وجه الممثل والمخرج قائلة: أيها الكلاب! أنتم الرجال لا تريدون منا (النساء) إلا أجسادنا، حتى تصبحوا من أصحاب الملايين على حسابنا، ثم انفجرت باكية.

لقد استيقظت فطرة هذه المرأة في لحظةٍ واحدة على الرغم من الحياة الفاسدة التي تغرق فيها، استيقظت لتقدم الدليل القاطع على المأساة الكبرى التي تعيش فيها المرأة، التي قالوا: إنها متقدمة ومتحضرة ومتمدنة[1].

*****

(١) «المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم» (٣٢ ـ ٣٣).

الفصل الثالث

الشهيرات من الراويات والمحدثات

سبق وأنْ قدَّمنا مسرداً وثبتاً بأسماء الراويات من الصحابيات في القرون الفاضلات، وسنعمل إن شاء الله تعالى في هٰذا الفصل على الوقوف بإيجاز على الشهيرات من الراويات والمحدِّثات فيما بعد ذلك مرتِّبين إيَّاهُنَّ على القرون، موضِّحين الخصائص والسمات اللاتي امتزن بها في كل قرن، فنقول وعلى الله الاعتماد:

* **المحدثات والراويات من التابعيات.**

تخرج من مدرسة أمهات المؤمنين وغيرهنّ من الصحابيات الكريمات رضوان الله عليهنّ جماعة غير قليلة من طالبات علم الحديث النبوي، وشاركن فيما - بعد - برواية الأحاديث، وأخذ عنهنّ كبار المحدثين، ومن أشهرهنّ:

* عَمْرة بنت عبد الرحمٰن بن سَعْد بن زُرارة بن عُدُس الأنصاريّة النَّجاريّة المدنية الفقيهة، تربيةُ عائشة وتلميذتها، كانت عالمةً فقيهةً، حُجَّةً، كثيرة العلم، حدثت عن عائشة، وأم سلمة، ورافع بن خديج، وأُختها أم هشام بنت حارثة، حدث عنها ولدها أبو الرِّجال محمد بن عبد الرحمٰن، وابناه حارثة ومالك، وابن أُختها القاضي أبو بكر ابن حزم، وابناه: عبد الله

ومحمد، والزُّهري، وآخرون.

قال القاسم بن محمد لابن شهاب: يا غلام! أراكَ تحرص على طلب العلم؛ أفلا أدلُّكَ على وعائه؟ قلت: بلى. قال: عليك بعَمْرة؛ فإنها كانت في حَجْر عائشة؛ قال: فأتيتُها فوجدتُها بحراً لا يُنْزَفُ.

وثَّقها جماعة من العلماء؛ فقال ابن معين عنها: «ثقة، حجة»، وقال العجلي: «مدنية، تابعية، ثقة»، وذكرها ابن المديني ففخَّم أمرها، وقال: «عمرة أحد الثقات العلماء بعائشة الأثبات»، وذكرها ابن حبان في «الثقات» وقال: «كانت من أعلم الناس بحديث عائشة»، ونعتها ابن سعد بـ«العالمة»، وقال عمر بن عبد العزيز: «ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة».

وحديثها كثير في دواوين السنة، واختلفوا في وفاتها؛ فقيل: توفِّيت سنة ثمان وتسعين، وقيل: توفِّيت في سنة ستٍ ومئة[1].

* حفصة بنت سيرين أم الهذيل الفقيهة الأنصارية، سيدة جليلة من سيدات التابعيات، اشتهرت بالعبادة والفقه وقراءة القرآن والحديث.

قال إياس بن معاوية: ما أدركتُ أحداً أُفضِّلُه عليها، فذكروا له الحسن وابن سيرين؛ فقال: أما أنا؛ فما أُفَضِّل عليها أحداً.

وأما سيدات التابعيات في قول ابن أبي داود: فحفصة بنت سيرين، وعمرة بنت عبد الرحمٰن، ويليهما أم الدرداء الصغرى.

روت حفصة عن أم عطية، وأم الرائح، ومولاها أنس بن مالك، وأبي

(١) لها ترجمة في «طبقات ابن سعد» (٨ / ٤٨٠)، و«تهذيب الكمال» (ق ١٦٩٧)، و«العبر» (١ / ١١٧)، و«السير» (٤ / ٥٠٧)، و«التهذيب» (١٢ / ٤٣٨)، و«الشذرات» (١ / ١١٤).

العالية، روى عنها أخوها محمد، وقتادة، وأيوب، وخالد الحذَّاء، وابن عَوْن، وهشام بن حسان.

قرأتِ القرآن وهي بنتُ ثِنْتَيْ عَشْرة سنة وعاشت سبعين سنة، وكانت توصي الشباب خيراً، فمن أقوالها: يا معشر الشباب! خذوا من أنفسكم وأنتم شباب؛ فإني رأيتُ العمل في الشباب وهٰذا ما فعلته هي رحمها الله؛ فقد مكثت ثلاثين سنة لا تخرج من مُصلَّاها إلا لقائلة أو قضاء حاجة، توفيت بعد المئة[1].

* مُعَاذة بنت عبد الله أُمّ الصَّهْباء العدويَّة البصرية العابدة، زوجة السيِّد القدوة صِلَة بن أَشيم.

من ربات الفصاحة والبلاغة والتفقُّه في الدين ورواية حديث سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين، وكانت ناسكة عابدة زاهدة، نعتها الذهبي بقوله: «السيِّدة العالمة».

روت عن علي وعائشة وهشام بن عامر، حدث عنها أبو قلابة، ويزيد الرِّشْك، وعاصم الأحول، وأيوب السِّختياني وآخرون.

وثقها ابن معين؛ فقال: «ثقة حجة»، وحديثها محتجٌّ به في الصحاح، وكانت تحيي الليل عبادة، وتقول: عجبتُ لعينٍ تنام وقد علمتْ طول الرُّقاد في ظُلم القبور، وقالت لمرأةٍ أرضعتها لما كَبُرت: يا بنيَّة! كوني من لقاء الله تعالى على حذر ورجاء؛ فإني رأيتُ الراجي محفوفاً بحسن الزُّلفى لديه يوم يلقاه، ورأيتُ الخائف له مؤملاً له زمان يوم يقوم الناس لرب العالمين، ثم

(١) لها ترجمة في «طبقات ابن سعد» (٨ / ٤٨٤)، و«تهذيب الكمال» (ق ١٦٧٩)، و«العبر» (١ / ١٢٣)، و«السير» (٤ / ٥٠٧)، و«التهذيب» (١٢ / ٤٠٩)، و«الشذرات» (١ / ١٢٢).

بكت، وكانت تقول: صحبتُ الدنيا سبعين سنة فما رأيتُ فيها قرة عين قط، ماتت سنة ثلاث وثمانين، وقيل: غير ذلك[1].

* أم الدرداء الصغرى هُجَيْمة ـ ويقال: جُهَيْمة ـ الأَوْصابيَّة الحميريَّة الدِّمشقيَّة.

فقيهـة كبيرة، وعـالمـة عاملة، واسعة الاطلاع، كثيرة الرواية، وافرة العقل والذكاء، ذات جمال وملحة، نعتها الذهبي بقول: «السيدة العالمة الفقيهة».

رَوَتْ علماً جمّاً عن زوجها أبي الدرداء، وعن سلمان الفارسي، وكعب ابن عاصم الأشعري، وعائشة، وأبي هريرة وطائفة.

وعـرضتِ القرآن وهي صغيرة على أبي الـدرداء، وطـال عمـرهـا، واشتهرت بالعلم والعمل والزهد.

حدث عنها جماعة من مشاهير الرواة، مثل: جُبَير بن نُفَير، وأبو قِلابة الجَرْمي، وسالم بن أبي الجعد، ومكحول، وزيد بن أسلم.

قال مكحول: كانت أم الدرداء فقيهة، وقال أبو أحمد العسال: يروى عنهـا الحـديث الكثير، ويُروى عنها قولها: أفضل العلم المعرفة، وقولها: تعلموا الحكمة صغاراً؛ تعملوا بها كباراً، وإن كل زارع حاصد ما زرع من خير أو شر.

وقال لها رجل: إني لأجد في قلبي داء لا أجد له دواء، وأجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً. قالت: أطلع في القبور وأشهد الموتى، توفيت بعد سنة

(١) لها ترجمة في «طبقات ابن سعد» (٨ / ٤٨٣)، و«ثقات ابن حبان» (٥ / ٤٦٦)، و«تهـذيب الكمـال» (ق ١٧٠٥)، و«السير» (٤ / ٥٠٨)، و«التهـذيب» (١٢ / ٤٥٢)، و«الشذرات» (١ / ١٢٢).

إحدى وثمانين رحمها الله تعالى[1].

وغيرهن كثير، وقد اعتنى بذكرهن وقارب على استيعابهن والإشارة إلى شيوخهن، ومن روى عنهن ابن حبان في كتابه «الثقات»؛ فقف عليه[2].

* **المحدِّثات والراويات في غضون المئة الثانية والثالثة.**

اشتهرت غير واحدة من النساء برواية الحديث في المئة الثانية والثالثة للهجرة، وقد ذكر الخطيب البغدادي في تأليفه «تاريخ بغداد»[3] بعضهنّ، وحاول ابن حبان في «الثقات» استيعابهنّ[4]، ومن أشهرهنّ:

* عابدة المدنية.

راوية من راويات الحديث المكثرات، روت عن مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) وغيره من علماء المدينة؛ فأكثرت، فقد قال بعض الحفاظ: «إنها تروي عشرة آلاف حديث». وقال ابن الأبار: «إنها تسند حديثاً كثيراً»[5].

ومن بينهن أيضاً:

(١) لها ترجمة في «المعرفة والتاريخ» (٢ / ٣٢٧)، و«ثقات ابن حبان» (٥ / ٥١٧)، و«تهذيب الكمال» (ق ١٧٠٩)، و«تذكرة الحفاظ» (١ / ٥٠)، و«العبر» (١ / ٩٣)، و«السير» (٤ / ٢٧٧)، و«البداية والنهاية» (٩ / ٤٧)، و«غاية النهاية» (ت ٣٧٨٣).

(٢) في المواطن التالية: (٤ / ٦٣- ٦٤، ٨٤، ٨٨، ١٢١، ١٩٤ - ١٩٦، ٢١٥ - ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٤٤ - ٢٤٥، ٢٧١ - ٢٧٢، ٣٥١ - ٣٥٢، ٣٨٥ - ٣٨٦، ٣٩٩)، و(٥ / ٢٨٨ - ٢٨٩، ٣٠٠ - ٣٠١، ٣٢٨ - ٣٢٩، ٣٤٣ - ٣٤٤، ٣٤٦، ٤٦٥ - ٤٦٦، ٤٨٦ - ٤٨٧، ٥١٧، ٥٩٣ - ٥٩٤).

(٣) (١٤ / ٤٣٣) وما بعده.

(٤) انظر منه المواطن التالية: (٦ / ٩٠، ٢٥٠، ٢٩٥، ٤٨٠)، (٧ / ٣٠٧، ٦٧٠).

(٥) انظر: «أعلام النساء» (٣ / ١٩٩).

عُلَيَّة[1] بنت حسَّان، كانت امرأةً نبيلة عاقلة، لها دار بالعَوَقَة تعرف بها، وكان صالحُ المرّيّ وغيرُه من وجوه أهل البصرة وفقهائها يدخلون عليها، فتبرزُ

(١) إليها ينسب المحدث المشهور إسماعيل ابن عُلَيَّة، ومن مفاخر النساء وفضلهن أن كثيراً من المشاهير من المحدثين والشعراء وغيرهم كان ينسب إليهن، وقد جمع أسماء من نسب إلى أمه الفيروز آبادي في «تحفة الأبية فيمن نسب إلى غير أبيه»، ومحمد بن حبيب في «من نسب إلى أمه من الشعراء»، وهما مطبوعان في الجزء الأول من «نوادر المخطوطات».

وقد فات الأول منهما جماعة على شرطه، من مثل «الحسن ابن دينار» و«زياد ابن سُمَيَّة» و«سعيد ابن مرجانة»، و«سليمان ابن قنة» و«عبد الملك ابن بحير» و«يزيد ابن ضبَّة» و«يوحنا ابن علباء»، ولم ينبه على هٰذا المحقق الأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله تعالى.

ومن المفيد هنا التنبيه على خطأ يقع فيه كثير من العوام، وهو الاعتقاد بأن الناس ينادون يوم القيامة بأسماء أمهاتهم!

وبعضهم يتعلق بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾!

قال الزمخشري: «من بدع التفاسير قول من قال: إن الإمام في الآية جمع أم، وأن الناس يدعون بأمهاتهم دون آبائهم»، قال: «وهٰذا غلط أوجبه جهله بالتصريف فإن أماً لا تجمع على إمام».

انظر: «الكشاف» (٢ / ٣٦٩)، و«الإتقان» (٢ / ١٨١).

وبعضهم يتعلق بحديث باطل، وهو: «إن الناس يوم القيامة يدعون بأمهاتهم لا بآبائهم». انظر: «الأسرار المرفوعة» (ص ٤٧٣).

وبعضهم يتعلق بما عند الطبراني من حديث أبي أمامة، وهو طويل في التلقين، وفيه: «فليقم أحدكم على رأس قبره ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة!»، وهو ضعيف جداً، كما بينته في تحقيقي «تذكرة القرطبي».

وبعضهم يزيد حكماً لذلك مثل: من أجل عيسى عليه السلام، أو لشرف الحسن والحسين، أو لئلا يفتضح أولاد الزنا، وهٰذا كله باطل يرده ما في «الصحيحين» من حديث ابن عمر مرفوعاً: «إن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة يقال: هٰذه غدرة فلان ابن فلان».

قال ابن بطال: «في هٰذا الحديث رد لقول من زعم أنهم لا يدعون يوم القيامة إلا بأمهاتهم ستراً على آبائهم».

لهم تحادثهم وتسائلهم[1].

وكذلك السيدة المكرمة الصالحة نفيسة بنت الحسن بن زيد ابن سبط النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، (ت ٢٠٨هـ)، كانت تحفظ القرآن الكريم، عالمة بالتفسير والحديث، ذكر ابن خلكان أن الإمام الشافعي عندما توفي أدخلت جنازته إليها، وصلت عليه في دارها.

قال الإمام الذهبي: «ولم يبلغنا كبير شيء من أخبارها»؛ قال: «ولجهلةِ المصريين فيها اعتقادٌ يَتَجاوزُ الوصف، ولا يجوزُ مما فيه من الشرك، ويسجدون لها، ويلتمسون منها المغفرةَ، وكان ذٰلك مِن دسائس دعاة العُبيديَّة»[2].

قال ابن كثير: «وإلى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً جداً، ولا سيما عوام مصر؛ فإنهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك، وألفاظاً كثيرة ينبغي أن يعرفوا أنها لا تجوز، وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من سلالته، والذي ينبغي أن يعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرامٌ، ومن زعم أنها تفك من الخشب، أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله؛ فهو مشرك، رحمها الله وأكرمها»[3].

*** المحدثات والراويات في غضون المئة الرابعة.**

بعد أن أُلِّفت الكتب المهمة في هٰذه الفترة ترى كثيراً من المحدثات قد تضلعن بهٰذه الكتب وحذقن فيها، وكانت لهن يدٌ في تدريسها أيضاً، ومن

(١) «تهذيب الكمال» (٣ / ٣١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠ / ١٠٦).

(٣) «البداية والنهاية» (١٠ / ٢٧٤).

أشهر من امتزن بذلك: فاطمة بنت عبد الرحمن (المتوفاة سنة ٣١٢هـ)، وفاطمة بنت أبي داود، وأمة الواحد بنت المحاملي الحسين بن إسماعيل (المتوفاة سنة ٣٧٧هـ)، وهي والدة القاضي محمد بن أحمد بن القاسم المحاملي، وجمعة بنت أحمد، وأمة السلام بنت القاضي أبي بكر، وقد أَفَدْنَ بدرس الحديث، واشتهرن به.

وكانت أمة الواحد واسمها سُتَيْتَة بجانب روايتها الحديث عالمة، فقيهة، مفتية، نعتها الخطيب بقوله: «وكانت فاضلة في نفسها: كثيرة الصدقة، مسارعة في الخيرات، حدثت وكتب عنها الحديث»، تفقهت بأبيها وروَتْ عنه وعن إسماعيل الورّاق وعبد الغافر الحمصي، وحفظتْ القرآن والفقه الشافعي، وأتقنت الفرائض ومسائل الدَّوْر والعربيَّة، وغير ذلك.

قال البَرْقاني: «كانت تُفتي مع أبي علي بن أبي هريرة»، وقال غيرهُ: «كانت من أحفظ الناس للفقه، وروى عنها الحسن بن محمد الخلال»[1].

أما جمعة بنت أحمد بن محمد بن عبيد الله المحمية؛ فهي من أهل نيسابور، قدمت بغداد وحدثت بها عن أبي عمرو بن حمدان، وأبي أحمد الحافظ، وأبي بكر الطرازي، وعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الرازي، وبشر بن محمد بن ياسين.

قال الخطيب البغدادي: «حدثني عنها أبو محمد الخلال، وعبد العزيز ابن علي الأزجي، وأبو الحسين محمد بن محمد الشروطي»، قال: «وذكر لي الشروطي أنه سمع منها ببغداد في سنة ست وتسعين وثلاث مئة»، وقال: «وقال لي الخلال: كان أبو حامد الإسفراييني يعظمها ويكرمها»[2].

(١) لها ترجمة في «تاريخ بغداد» (١٤ / ٤٤٢)، و«المنتظم» (٧ / ١٣٨)، و«العبر» (٣ / ٤)، و«السير» (١٥ / ٢٦٤)، و«مرآة الجنان» (٢ / ٤٠٧)، و«الشذرات» (٣ / ٨٨).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٤ / ٤٤٤).

وأما أمة السلام بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة؛ فقد سمعت محمد بن إسماعيل البصلاني ومحمد بن الحسين بن حميد بن الربيع.

قال الخطيب: «حدثنا عنها الأزهري، والتنوخي، والحسين بن جعفر السلماسي، ومحمد بن أحمد بن محمد بن حسنون النرسي، وأبو خازم، وأبو يعلى محمد ابنا الحسين بن محمد بن الفراء»، كانت قد حدثت ببغداد سنة تسع وثلاث مئة.

قال الخطيب: «سمعت الأزهري والتنوخي ذكرا أمة السلام بنت أحمد ابن كامل؛ فأثنيا عليها ثناءً حسناً، ووصفاها بالديانة والعقل والفضل»، توفيت سنة تسعين وثلاث مئة[1].

وكانت بعض المحدثات يذكرن في مجالس الإملاء أحاديثَ النبي ﷺ من حفظهنّ، كما كانت تفعل فاطمة بنت أبي بكر بن أبي داود السجستاني[2].

*** المحدثات والراويات في غضون المئة الخامسة**

وفي غضون المئة الخامسة وجد من النساء فاضلات محدِّثات، قد اعترف بفضلهنَّ المهرة الحذَّاق من المحدثين، وقد ترجم لهن أهل العلم؛ فمنهن:

* فاطمة بنت الأستاذ الزاهد أبي علي الحسن بن علي الدقاق.

كانت قرينة أبي القاسم القشيري صاحب «الرسالة»[3] المشهورة،

(١) «تاريخ بغداد» (١٤ / ٤٤٣).

(٢) راجع: «تاريخ بغداد» (١٤ / ٤٤٢).

(٣) فيها من الكلام الجيِّد الكثير، وفيها من كلام العقائد الفاسدة الكثير أيضاً، قال =

وكانت من أشهر المحدِّثات والمحدثين في المئة الخامسة من الهجرة، سمعت من أبي نُعيم الإسفراييني، وأبي الحسن العَلَوي، وعبد الله بن يوسف، وأبي عبد الله الحاكم، والسُّلَمي، وطائفة.

حظيت بسهمٍ وافرٍ في العلوم الإسلامية، وتعلَّقت بأهداب الفطاحل من المحدثين، وبرزت نسيج وحدها في الحديث، وكانت تعد من أشهر المحدثات، وفاقت بني عصرها بعلو الإسناد، نعتها الذهبي بقوله: «الشيخة العابدة العالمة»، وبقوله: «وكانت عابدةً، قانتة، متهجّدة، كبيرة القدر».

حدث عنها عبد الله الفُراوي، وزاهرٌ الشَّحّامي، وأبو الأسعد هبة الرحمٰن بن عبد الواحد حفيدُها، وآخرون، ماتت في ذي القعدة سنة ثمانين وأربع مئة ولها تسعون سنة رحمها الله[1].

* عائشة بنت حسن بن إبراهيم أم الفتح الأصبهانية الوَرْكَانِيَّة.

كتبت الإملاء عن أبي عبد الله بن منده، بخطّها، وسمعت من محمد ابن جشْنِس الراوي عن ابن صاعد، ومن عبد الواحد بن شاه وجماعة.

مدحها مترجموها؛ فقال الذهبي: «الواعظة، العالمة، المُسْنِدة»، وهي أول شيخة للحافظ إسماعيل بن محمد.

قال السمعاني: «سألتُ الحافظ إسماعيل عنها؛ فقال: امرأة صالحة،

= الأستاذ زهير الشاويش: «وكان أحد علمائنا الأفاضل يقول: هي آخر الخير وأول الشر، ولكن بعد تتبّع أثرها السيء في الأمة؛ يحسن النصح بالابتعاد عنها، أو أن تهذب من عالمٍ صحيح العقيدة، سليم العقل». راجع «النخبة البهيَّة في الأحاديث المكذوبة على خير البرية» (ص ٥٤ ـ الهامش).

(1) لها ترجمة في «التقييد» (٢ / ٣٢١)، و«العبر» (٣ / ٢٩٦)، و«السير» (١٨ / ٤٧٩)، و«الشذرات» (٣ / ٣٦٥).

عالمة، تَعِظ النساء، وكَتَبَتْ «أمالي ابن منده» عنه، وهي أول من سمعتُ منها الحديث، بعثني أبي إليها وكانت زاهدة».

روى عنها: الحسين بن عبد الملك الخلاَّل، وسعيد بن أبي الرجاء، ومحمد بن حمد الكِبْريتي، وإسماعيل الحمامي المُعَمَّر؛ فكان خاتمة أصحابها، بقيت إلى سنة ست وستين وأربع مئة[1].

* عائشة بنت محمد بن الحسين البسطامي.

روت عن أبي الحسين الخفاف وغيره، وعنها: إسماعيل ابن المؤذن، وزاهر الشَّحّامي، وأخوه وجيه، ومحمد بن حمُّويه الجُويني الزاهد، كانتا من عائلة علمٍ وفضلٍ، فأبوها كان من كبار العلماء، وأخوها أبو المعالي عمر والموفق هبة الله كانا من كبار العلماء، وولد أخيها أبو سهل محمد بن الموفق كبير الشأن، ماتت في حدود خمس وستين وأربع مئة[2].

ومن محدِّثات هٰذا القرن: بيبي[3] بنت عبد الصمد بن علي الهرثَميَّة، أم الفضل[4]، (ت ٤٧٧هـ)، الشيخة المعمرة، المسندة، المحدثة،

---

(1) لها ترجمة في «الأنساب» (ق ٥٨١ / ب)، و«معجم البلدان» (٥ / ٣٧٣)، و«اللباب» (٣ / ٣٦١)، و«السير» (١٨ / ٣٠٢)، و«العبر» (٣ / ٢٤٧)، و«الشذرات» (٣ / ٣٠٨).

(2) لها ترجمة في «تكملة إكمال الكمال» لابن نقطة، و«السير» (١٨ / ٤٢٥)، و«أعلام النساء» (١٨ / ٤٢٥).

(3) بيبي ببائين مكسورتين كذا ضبط اسمها في مخطوطة «السير»، وكذا هو معروف ليومنا هٰذا عند سكان شبه القارة الهندية، وهو عندهم بمعنى (السيدة)، وضبطه الزَّبيدي في «تاج العروس» (١ / ١٥٥) فقال: «كضيزى».

(4) لها ترجمة في «السير» (٨ / ٤٠٣)، و«العبر» (٣ / ٢٨٧)، و«شذرات الذهب» (٣ / ٣٥٤).

الفاضلة، صاحبة الجزء(١) الذي اشتهرت بروايته عن عبد الرحمٰن بن أبي شريح عن شيوخه، تفردت به، وسمعه منها عالم لا يحصون، وسلكها الذهبي ضمن «أعلام حملة الآثار النبوية الذين سار ذكرهم في الأقطار والأعصار»(٢).

ولا يحقُّ لنا بحالٍ ونحن نتحدَّث عن هٰذه الفترة أن نتجاوز عن:

* كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المَرْوَزِيَّة.

فقد كانت ركناً ركيناً للحديث، وتحضر دروسها العلماء الكبار الفطاحل، كالمحدث الفقيه المعروف الخطيب البغدادي، والمحدث الشهير أبو عبد الله محمد بن نصر المعروف بالحميدي الأزدي، وكالمؤرِّخ الشهير أبو المحاسن المصري، وكالنسّابة المحدث المعروف السمعاني، كلهم كانوا من جناة ثمارها العلمية، وقد اعترف العلماء بفضلها وسبقها في تدريس «الجامع الصحيح» للبخاري؛ حتى إن محدث هراة أبا ذر رحمه الله تعالى قد وصّى الطلبة أن لا يأخذوا «الجامع الصحيح» إلا عنها.

ترجم لها ابن نقطة؛ فقال:

«حدثت بـ«صحيح البخاري» بمكة عن أبي الهيثم محمد بن المكي الكُشْمِيْهَني، وسمعت أيضاً من زاهر بن أحمد السرخسي، وكانت عالمة، تضبط كتبها فيما بلغنا، سمع منها الحافظ أبو بكر الخطيب «صحيح البخاري»، وأبو طالب الحسين بن محمد الزَّيْنبي»(٣).

وترجم لها الحافظ ابن الجوزي في حوادث سنة (٤٦٣هـ)؛ فقال

(١) وهو مطبوع بتحقيق الشيخ عبد الرحمن الفريوائي.

(٢) «المعين في طبقات المحدثين» (ص ١٣٧).

(٣) «التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد» (٢ / ٣٢٤).

رحمه الله تعالى:

«وتُوفِّيَتْ بمكة في هٰذه السنة كريمةُ بنتُ أحمد بن محمد بن أبي حاتم المروزية، من أهل كُشْمِيْهَن، قرية من قرى مَرْو، وكانت عالمةً صالحة، سمِعَتْ أبا الهيثم الكُشْمِيْهَنِّي وغيرَه، وقرأ عليها الأئمةُ؛ كالخطيب، وابن المطلب، والسَّمعاني، وأبي طالب الزينبي»(١) انتهى.

وقال الحافظ الذهبي في «العِبَر» في حوادث سنة **٤٦٣هـ** أيضاً: «وفيها تُوفِّيتْ كريمةُ بنتُ أحمد بن محمد بن حاتم أمُّ الكرام المَرْوَزِيَّة(٢)، المجاورةُ

(١) «المنتظم» (٨ / ٢٧٠).

(٢) هٰكذا جاءت نِسبتُها في غير كتاب: (المَرْوَزِيَّة)، وهٰذه النسبة إلى مَرْو الشَّاهِجَان، وترجم لها الزركلي في «الأعلام» (٦ / ٧٨)، ونسبها بقوله: «المَرُّوْذِيَّة»؛ أي: بالراء المشدَّدة المضمومة، فالواو الساكنة، فالذال المعجمة، وقال: «وأصلُها من مَرْو الرُّوْذ». انتهى.

فإن صحَّ هٰذا؛ فيكون الصواب فيها كما قال: (المَرُّوْذِيَّة)، ولٰكن الكتب كلها تتفقُ على ذكرها: (المَرْوَزِيَّة).

قال الدكتور محمود الطَّناجي في تعليقه على «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لتقي الدين الفاسي (٨ / ٣١٠) على ترجمة كريمة المروزية، وذكر فيه قول الأستاذ الزركلي ثم تعقَّبه بقوله:

«ولم أجد أحداً ممن ترجم لها ذكر ذٰلك، وقد ترجم لها في «الكامل»، و«العبر»، و«الشذرات»، و«البداية والنهاية»، و«تاج العروس» في (كرم، ٩ / ٤٣)، وكلهم على أنها (المروزية)، ثم نظرت في «الوافي بالوفيات» مصورة معهد المخطوطات (ج ٢٤)؛ فوجدتُها أيضاً فيه: (المروزية)» انتهى.

فما قاله الأستاذ الزركلي رحمه الله تعالى وَهَمٌ لا يُلْتَفَتُ إليه.

وهناك محدِّثة أخرى (كريمة) متأخرة عن هٰذه تُسمَّى: (كريمة الشامية)، ذكرها الذهبي في «وفيات تذكرة الحفاظ» (٤ / ١٤٣٤)؛ فقال في وفيات سنة ٦٤١:

«وفيها ماتت مُسنِدةُ الشام أُمُّ الفضل، كريمةُ بنتُ المحدِّث عبد الوهاب بن علي بن الخضر، القرشية الزبيدية، توفيت سنة ٦٤١ عن ٩٥ سنة» انتهى.

بمكة، رَوَتْ «الصحيح» - أي: «صحيح البخاري» - عن الكُشْمِيهَني، وَرَوَتْ عن زاهر السَّرْخَسي، وكانت تضبطُ كتابها وتُقابِلُ نُسَخَها، ولها فَهْمٌ ونباهة، وما تزوَّجَتْ قط، وقيل: إنها بَلَغَتْ المئة، وسَمِعَ منها خَلْق»[١].

ونعتها في «السير» بقوله: «الشيخة العالمة، الفاضلة، المسندة»، وقال: «سمعت من أبي الهيثم الكُشْمِيهني «صحيح البخاري»، وسمعت من زاهر بن أحمد السَّرْخَسي وعبد الله بن يوسف بن بامُويه الأصبهاني»، قال: «وكانت إذا رَوَتْ قابلتْ بأصلها، ولها فَهْمٌ ومعرفةٌ مع الخير والتعبُّد، روت «الصحيح» مرات كثيرة، مرة بقراءة أبي بكر الخطيب في أيام الموسم، وماتت بكراً لم تتزوج، حدَّث عنها الخطيب، وأبو الغنائم النَّرْسي، وأبو طالب الحسين بن محمد الزَّيْنبي، ومحمد بن بركات السَّعيدي، وعليّ بن الحسين الفَرَّاء، وعبد الله بن محمد بن صدقة بن الغَزَال، وأبو القاسم علي بن إبراهيم النَّسيب، وأبو المظفَّر منصور بن السمعاني، وآخرون».

قال أبو الغنائم النَّرْسي: «أخرجَتْ كريمةُ إليَّ النسخة بـ «الصحيح» فقعدتُ بحذائها، وكتبتُ سبعَ أوراق، وقرأتُها، وكنتُ أُريدُ أن أُعارِضَ وحدي، فقالت: لا حتى تُعارِض معي، فعَارَضْتُ معها، قال: وقرأتُ عليها من حديث زاهر».

= و(كريمة) الشامية هي التي سَمِعَ منها الحافظُ أبو شامة المقدسي، الواردُ اسمُها مجرداً في ترجمته في «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤ / ١٤٦١)، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص ٥٠٧)، وقد غَلِطَ الغلطَ الفاحشَ محققُ هٰذه «الطبقات»! فَسَمَّى في الفهارس فيها (ص ٦٣٨) (كريمة) التي سَمِعَ منها أبو شامة (كريمة بنت أحمد الروزية)! وهٰذا خطأ بيِّن؛ فكريمةُ المروزية ماتت سنة ٤٦٣هـ، وأبو شامة ولد سنة ٥٩٩، فأنَّى يَسمعُ ممن ماتت قبلَه بنحو قرنٍ ونصف؟!.

من: «العلماء العزاب» (١٢٧ - ١٢٨).

(١) «العبر» (٣ / ٢٥٤).

وقال أبو بكر بن منصور السمعاني: «سمعتُ الوالد يذكر كريمة، ويقول: وهل رأى إنسانٌ مثل كريمة؟!»[١].

*** عناية النساء برواية وتدريس «صحيح البخاري» في هٰذه المئة وما بعدها.**

والحق أن النساء كان لهنّ حظ وافر وسهم كبير في تاريخ التدريس لـ «الجامع الصحيح» للإمام البخاري، وممن اشتهرن بذلك غير كريمة: فاطمة بنت محمد (المتوفاة سنة ٥٣٩هـ)، وشُهْدة بنت أحمد (المتوفاة سنة ٥٧٤هـ)، وزينب بنت عبد الرحمن (المتوفاة سنة ٦١٥هـ)، وشريفة بنت أحمد النسوي، وست الوزراء بنت عمر (المتوفاة سنة ٧١٦هـ)، وهنّ من أولئك الذين يجدر بأن ينوَّه بهم:

أما فاطمة؛ فكانت أخذت الحديث عن المحدث الشهير سعيد بن أبي سعيد العيَّار، وكان المحدثون يذكرونها بـ «مسندة أصبهان»، ويقولون عنها: «عُمِّرَتْ وتَفَرَّدَتْ بأشياء».

قال ابن نقطة في ترجمتها: «وسمعت «صحيح البخاري» من سعيد بن أبي سعيد العيار»، ونقل عن أبي غانم المهذب بن الحسين قوله عنها: «راوية البخاري عن سعيد العيار»[٢].

أما شُهْدة؛ فكان لها في الخط باع طويل، وفي الحديث كانت سنداً، وأصحاب السير يذكرونها بـ «خطاطة»، و«سند الحديث»، و«فخر النساء»، و«مسند العراق»، وجدها كان يعمل بالإبر، ولذلك عرف بـ (الإبَرِيّ)، وأبوها

---

(١) «السير» (١٨ / ٢٣٣ - ٢٣٤)، وانظر ترجمتها أيضاً في «الكامل» (١٠ / ٦٩)، و«المختصر في أخبار البشر» (٢ / ١٨٨)، و«البداية والنهاية» (١٢ / ١٠٥)، و«شذرات الذهب» (٣ / ٣١٤).

(٢) لها ترجمة في «التقييد» (٢ / ٣٢٢ - ٣٢٣)، و«التحبير» (٢ / ٤٣٢)، و«السير» (٢٠ / ١٤٨)، و«العبر» (٤ / ١٠٩)، و«الشذرات» (٤ / ١٢٣).

قد رزق شغفاً بالحديث؛ فأخذه عن أربابه في عصره، وراعى في تعليمها إتقان الأساس والغزارة، وكان زوجها رجلاً كريماً محبّاً للعلوم واسمه علي بن محمد، وكان من الأعيان، واختص بالإمام المقتفي لأمر الله، ولعله رعاية لقرينته بنى مدرسة لأصحاب الشافعي على شاطىء دجلة، وإلى جانبها رباطاً للزاهدين، ووقف عليها وقفاً خطيراً.

قال الشيخ الموفَّق أحد مَنْ حدَّث عنها: «انتهى إليها إسنادُ بغداد، وعُمِّرَتْ حتى ألحقت الصغار بالكبار، وكانت تكتب خطّاً جيداً، لٰكنه تغيَّر لِكِبَرِها»[١].

وخلاصة القول: إنَّ شُهْدة رحمها الله تعالى قد رُزِقَتْ صيتاً طائراً في الحديث، وامتازت بعلو سندها خصوصاً[٢]، وكان يحضر حلقة درسها عدد وافر من الطلاب، ولصيتها وشهرتها ادعى بعضُهم التتلمذَ منها اختلاقاً وافتراءً[٣].

أما زينب بنت عبد الرحمٰن؛ فقد انقطع بموتها إسناد عال، كما قال ابن العماد[٤]، وسمعت «صحيح البخاري» من وجيه بن طاهر الشحامي وأبي الفتوح بن شاه الشاذياخي، ولها إجازة من شيوخ نيسابور وغيرها، وسماعها صحيح[٥].

وأما شريفة بنت أحمد؛ فقد سمعت «البخاري» من الكشميهني فيما

---

(١) «السير» (٢٠ / ٥٤٣).

(٢) راجع «وفيات الأعيان» (الترجمة ٢٩٥).

(٣) «نفح الطيب» (٢ / ٩٦)، وما تقدم من كلام لابن الجوزي عنها.

(٤) راجع: «شذرات الذهب» (٥ / ٦٣).

(٥) راجع: «التقييد» (٢ / ٣٢٦).

ذكر ابن نقطة[١]، وقال: «وسماعها صحيح».

وأيضاً ست الوزراء كانت معروفة بالمسندة، ودرست «الجامع الصحيح» بمصر ودمشق مرات، نعتها ابن العماد بـ«مسندة الوقت»[٢]، وهي أحد من تلمذ عليها الذهبي؛ قال: «شيخة ديِّنة، متزهِّدة، حَسَنَة الأخلاق، روت الكثير وعُمِّرتْ دهراً، سمعت أباها وابن الزَّبيدي، وكانت آخر مَنْ حَدَّث بـ«مسند الشافعي»، قرأتُ عليها «الصحيح» و«مسند الشافعي»، حدَّث عنها ابن الخَبَّاز في «مشيخته»»؛ قال: «وقد روت يوم وفاتها، وفاجأها الموت»[٣].

وقد اعتنى جماعة من النساء بعد ذٰلك بـ«صحيح البخاري»؛ فكانت ـ مثلاً ـ زينب بنت مُظَفَّر (المتوفاة سنة ٧٠٩هـ) قد قابلت «صحيح البخاري» مع زوجها[٤]، وكانت أم الخير أمة الخالق الشيخة الأصيلة المعمرة (المتوفاة سنة ٩٠٢هـ) آخر من يروي «صحيح البخاري» عن أصحاب الحجار، ونزل أهل الأرض درجة في رواية هٰذا «الصحيح» بموتها رحمها الله تعالى[٥]، ولذا؛ كانت تعرف بـ(خاتمة محدثات الحجاز).

*** عناية النساء بكتب الحديث الأخرى.**

من خلال مطالعة كتب الرجال والنظر في أسانيد وحواشي المخطوطات

---

(١) انظر: «التقييد» (٢ / ٣٢٥).

(٢) «شذرات الذهب» (٦ / ٤٠).

(٣) «معجم الشيوخ» (الترجمة ٣٢٣)، ولها ترجمة في «الدرر الكامنة» (٢ / ١٢٩)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢ / ٤٢٩)، و«الوافي بالوفيات» (١٥ / ١١٧)، و«الدليل الشافي» (١ / ٣١٢).

(٤) راجع: «معجم الشيوخ» للذهبي (الترجمة ٢٨١).

(٥) انظر: «شذرات الذهب» (٨ / ١٤).

في علم الحديث وإجازات المحدثين والأسانيد نستطيع القول أن النساء لم يدرسن «الجامع الصحيح» فقط على أسلوب يجدر به الثناء ويقدر قدره، بل قد درسن عداه من الكتب الأخرى من مثل: «الصحاح»، و«السنن»، و«المسانيد»، و«المعاجم»، و«الأجزاء الحديثية»، وقد بلغ حظهنّ في ذلك مبلغاً عظيماً، فأم الخير فاطمة بنت علي[1] (المتوفاة سنة ٥٣٢هـ)، وفاطمة الشهرَزورية قد درَّستا «الصحيح» لمسلم بن الحجاج، وصفية بنت أحمد (المتوفاة سنة ٧٤١هـ) سمعت بقراءة أخيها لأُمِّها الشمس عبيد الله في «صحيح مسلم» من ابن عبد الدائم[2]، وفاطمة الجُوْزدانية[3] (المتوفاة سنة ٥٢٤هـ) آخر من روت في الدنيا عن ابن ريذة، وهي مكثرة عنه، وقد تفردت في وقتها برواية كتاب «المعجم الكبير» للطبراني و«المعجم الصغير» للطبراني عنه.

وقد سمع الوادي آشي «المعجم الصغير» على الشيخ زين الدين أبي بكر بن يوسف المزي بقراءة الحافظ الذهبي، حدث به عن الشيخين محمد ابن إسماعيل بن أحمد المقدسي وأبي إسحاق إبراهيم بن خليل الآدمي بسماعهما من أبي الفرج يحيى بن محمود بن سعد الثقفي، أخبرنا أبو عدنان محمد بن أحمد بن المطهر وأم إبراهيم فاطمة بنت عبد الله الجُوْزدانية؛ قالا: أخبرنا محمد بن عبد الله بن ريذة الضبي من مؤلفه الطبراني[4]،

(١) انظر: «السير» (١٩ / ٦٢٥)، و«التحبير» (٢ / ٤٣٠)، و«الشذرات» (٤ / ١٠٠).

(٢) انظر: «معجم الشيوخ» الترجمة (٣٣٧) و«الدرر الكامنة» (٢ / ٢٠٧).

(٣) انظر: «السير» (١٩ / ٥٠٤)، و«التحبير» (٢ / ٤٢٨)، و«التقييد» (٢ / ٣٢٢)، و«الشذرات» (٤ / ٦٩).

(٤) انظر: «برنامج الوادي آشي» (٢٠٨)، والسماعات المثبتة في الجزء الأول من «المعجم الكبير».

وسمعت من ابن ريذة أيضاً كتاب «الفتن» لنُعيم بن حماد[1].

وقد سمعت عفيفة بنت أحمد الفارفاني (المتوفاة سنة ٦٠٦هـ) من فاطمة الجُوزدانية «المعجم الكبير» و«الصغير» للطبراني، وكتاب «الفتن» لنُعيم بن حماد، وقد سمع ابن نقطة من عفيفة بعض مروياتها.

قال بعد أن ذكر أن لها إجازة من أبي علي الحداد وأبي طالب بن يوسف وجماعة من أهل أصبهان وبغداد ما نصه: «توفيت بأصبهان في ربيع الآخر أو جمادى الأولى من سنة ست وست مئة بعد خروجنا من البلد بقليل، سمعنا منها «المعجم الكبير»، و«الفتن» لنُعيم، وغير ذلك»[2].

وفاطمة بنت الأستاذ أبي علي الدقاق (المتوفاة سنة ٥٢٤هـ) سمع منها أبو البركات عبد الله الفُراوي بعض «مسند أبي عوانة» من أول باب فضائل القرآن إلى آخر الكتاب[3]، وعائشة بنت معمر (المتوفاة سنة ٦٠٧هـ)، سمعت من سعيد بن أبي الرجاء الصيرفي «مسند أبي يعلى الموصلي»، وقد درَّسَتْهُ.

قال ابن نقطة: «سمعنا منها بأصبهان «مسند أبي يعلى» وأجزاء من الفوائد، وكان سماعها صحيحاً بإفادة أبيها»[4]، وعاتكة بنت الحافظ أبي العلاء الحسن بن أحمد العطار الهمذاني (المتوفاة سنة ٦٠٩هـ) سمعت من أبي بكر هبة الله بن الفرج ابن أخت الطويل كتاب «السنن» لأبي داود السجستاني، وسمعت أيضاً كتاب «مكارم الأخلاق» لأبي بكر بن لال.

(١) انظر مصادر ترجمتها.

(٢) «التقييد» (٢ / ٣٢٦)، وانظر: «شذرات الذهب» (٥ / ١٩).

(٣) «التقييد» (٢ / ٣٢١ - ٣٢٢).

(٤) «التقييد» (٢ / ٣٢٥).

قال ابن نقطة في ترجمتها: «وأما كتاب «مكارم الأخلاق» لأبي بكر بن لال؛ فحدثني إسحاق بن محمد المؤيد الهمذاني أنه رأى سماعها في جميعه»، وقال: «وحدثت عاتكة بالكتاب، أعني: «السنن» جميعه ببغداد»(١).

وزينب بنت مكي الحرانية (المتوفاة سنة ٦٨٨هـ) كان يحضر درسها عدد خطير من الطلبة، وهي رحمها الله قد ألقت الخطب على «المسند» الضخم لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى(٢).

وأمة الرحيم بنت محمد اليُونيني (المتوفاة سنة ٧٢٩هـ)، إحدى شيخات الإمام الذهبي، قال عنها تلميذها: «سمعتْ مسند النساء من «مسند أحمد» على والدها، وكانت تكتب وتُقْرىء، وهي زوجة علاء الدين ابن عمرون، وهي موصوفة بالعقل والدين، قليلة المثل في النساء»(٣).

وجويرية بنت عمرو (المتوفاة سنة ٧٨٣هـ) وزينب بنت أحمد بن عمر (المتوفاة سنة ٧٢٢هـ) قد كابدتا متاعب السفر الطويل في طلب الحديث، وألقتا مجالس الإملاء الحديثية في المدينة المنورة ومصر، وأقرأتا «سنن الدارمي» و«مسند عبد بن حميد»، وكانت الطلبة لاستشفاء غليل طلبها تقصدهما من بلاد شاسعة وشقة بعيدة(٤).

وزينب بنت أحمد الكمال (المتوفاة سنة ٧٤٠هـ) قد أجاز لها خلق من

(١) «التقييد» (٢ / ٣٢٥).

(٢) انظر: «شذرات الذهب» (٥ / ٤٠٤)، و«المباحث العلمية» (٢٤٨).

(٣) «معجم الشيوخ» (الترجمة، ١٩٨).

(٤) راجع: «الأمم لإيقاظ الهمم» (٢٨ - ٢٩)، و«معجم الشيوخ» (٢٦٨)، و«الدرر الكامنة» (٢ / ١١٨)، و«شذرات الذهب» (٦ / ٥٦)، و«أعلام النساء» (٢ / ٥١)، و«المباحث العلمية» (٢٤٨).

البغادِدَة وغيرهم، وتفرَّدت وطال عمرها واشتهر ذكرها، نعتها الذهبي بقوله: «شيخة صالحة، متواضعة، خيِّرة، متودِّدة، كثيرةُ المروءة، لم تتزوَّج»، وقال: «توفيت... عن أربع وتسعين سنة ونزلوا بموتها درجة»(١).

ودرَّست زينب هٰذه «مسند أبي حنيفة»، و«الشمائل» للترمذي، و«شرح معاني الآثار» للطحاوي، وقد أخذت «معاني الآثار» عن محدِّثة تعرف بعجيبة بنت أبي بكر.

وهٰذه عجيبة الشيخة المُعَمِّرة المُسنِدَة أخذت عن جماعةٍ كثرٍ، وخرجوا لها «مشيخةً» في عشرة أجزاء، وتفردت في الدنيا، ومن مسموعها: الثاني من حديث أبي أحمد حُسَيْنَك من يحيى بن ثابت البقال، و«مختلف الحديث» للشافعي من عبد الحق اليُوسفي، و«تاريخ البخاري الكبير» من عبد الحق أيضاً(٢).

وقرأ عليها وعلى غيرها من المحدِّثات بعض كتب الحديث الرّحّال الإسلامي الشهير ابن بطوطة حين كان بدمشق(٣).

وأخذ محدث دمشق ووحيدها في فن السيرة ابن عساكر - الذي روى الحديث عن مئتين وألف محدث وعن ثمانين محدثة - عن المحدثة زينب بنت عبد الرحمٰن «الموطأ» للإمام مالك(٤)، وقرأ السيوطي كتاب «الرسالة»

(١) «معجم الشيوخ» (الترجمة، ٢٦٧)، ولها ترجمة في «الوفيات» (١ / ٣١٦) لابن رافع، و«الدرر الكامنة» (٢ / ٢٠٩)، و«الجوهر المنضد» (رقم ٤٩)، و«شذرات الذهب» (٦ / ١٢٦).

(٢) انظر: «السير» (٢٣ / ٢٣٢ - ٢٣٣)، و«العبر» (٥ / ١٩٤)، و«العسجد المسبوك» (٥٧٣)، و«الشذرات» (٥ / ٢٣٨).

(٣) انظر: «رحلة ابن بطوطة» (١ / ٢٥٣).

(٤) انظر: «معجم الأدباء» (٥ / ٤٠ - ٤١).

للإمام الشافعي على هاجر بنت محمد المحدِّثة[1].

ويصعب على الباحث حصر الكتب والأجزاء الحديثية التي أخذتها أو روتها النساء؛ ففي «معجم الشيوخ»[2] للذَّهبي عشرات إنْ لم يكن المئات من هٰذه الكتب التي قرأها الذهبي وحده أو أُجيز بها من النساء المحدِّثات.

*** المحدثات والراويات في غضون المئة السادسة.**

سبق في الفصل الأول عند حديثنا عن مشايخ السمعاني وابن الجوزي والسِّلفي ـ وكذا في السطور المرقومة آنفاً حول عناية النساء بالكتب الحديثية ـ إلماحات كاشفة عن الراويات والمحدثات في هٰذه المئة.

وكان من أبرز المحدثات وأشهرهنّ في هٰذا العصر فاطمة بنت عبد الله ابن أحمد الجُوْزْدانية[3] (المتوفاة سنة ٥٢٤هـ)، وفاطمة بنت محمد بن أبي سعيد[4] (المتوفاة سنة ٥٣٩هـ)، وفاطمة بنت أبي الحسن علي بن المظفر ابن زعبل[5] (المتوفاة سنة ٥٣٣هـ)، وفاطمة بنت سعد الخير[6] (المتوفاة سنة ٦٠٠هـ)، وشُهْدَة بنت أحمد[7] (المتوفاة سنة ٥٧٤هـ)، وتَجَنِّي بنت عبد الله الوَهْبانية[8] (المتوفاة سنة ٥٧٥هـ)، وخديجة بنت أحمد

(١) انظر: «الأمم لإيقاظ الهمم» (١٧ ـ ١٨)، و«المباحث العلمية» (٢٤٩).

(٢) انظر ـ على سبيل المثال ـ: (التراجم: ١٩٤، ١٩٦، ١٩٨، ٢١٦، ٢٣٤، ٢٤٤، ٢٤٥).

(٣) انظر ما تقدم (ص ٣٢).

(٤) انظر ما تقدم (ص ٨٥).

(٥) انظر ما تقدم (ص ٨٨).

(٦) انظر: «التقييد» (٢ / ٣٢٣ ـ ٣٢٤)، و«العبر» (٤ / ٣١٤).

(٧) انظر ما تقدم (ص ٣٨، ٨٥ ـ ٨٩).

(٨) انظر ترجمتها في «السير» (٢٠ / ٥٥٠)، و«العبر» (٤ / ٢٢٣) و«المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» (٢٦٨)، و«الوافي بالوفيات» (١٠ / ٣٧٩)، و«الشذرات» (٤ / ٢٥٠).

النَّهْروانية[1] (المتوفاة سنة ٥٧٠هـ)، ونفيسة ـ وتسمى فاطمة ـ بنت محمد بن علي البزَّازة[2] (المتوفاة سنة ٥٦٣هـ)، وغيرهن كثير.

وسبقت تراجم بعضهم وبيان أوجه عنايتهن بالحديث والرواية وكتب الأئمة في هٰذا الباب؛ فلا داعي للإعادة.

*** المحدِّثات والراويات بعد المئة السادسة من الهجرة.**

«وبعد المئة السادسة من الهجرة قد اهتاج سيلان جارفان؛ ففي جهة الحروب الصليبية قد زعزعت بنيان دول الإسلام، وفي أخرى التتر قد قوضت خيامه وجعلت الأرض ـ أرض السلم ـ عاليها سافلها، إذ كانت عساكر النصارى العطاش ترتوي من دماء المسلمين في جهة الغرب وتزعزع بنيان شرفها وسيادتها؛ ففي جهة الشرق كان هولاكو داهية دهياء يسفك الدماء، ويدوخ البلاد، ويفسد في العباد، وفي المئة السابعة قد بلغ الجور مبلغاً عظيماً، وسيل الطغيان بأمواجه المتلاطمة وتيارهُ المهيب المدهش قد عم بسيطة الإسلام وأخذ يَنْصَبُّ من هٰهنا وهٰهنا؛ حتى طفحت به بلاد الإسلام وشرقت بدماء أبنائها الكرام، وقصر التمدن الإسلامي الشامخ تراه كأنه خرٌّ من مكان سحيق لا بواكي له ولا رفيق، ولٰكن في تلك الأيام؛ أيام الغارات، أيام انتهاك الحرمات؛ هٰذه مجاهدات العلوم بعواطفهنّ الحماسية، كنّ يجاهدنّ في بقاء العلوم جهاد الأبطال في حومات القتال؛ لم تدكدك عزائمهنّ الحروب، ولم تروعهنّ الكوارث والكروب، وترى هناك لجهادهنّ ينابيع العلوم تنبع بنميرها العذب كمرآة الغريبة صفاء وجلاء، أين الرجال أيها

(١) انظر ترجمتها في «السير» (٢٠ / ٥٥١)، و«العبر» (٤ / ٢١٠)، و«النجوم الزاهرة» (٦ / ٧٥)، و«الشذرات» (٤ / ٢٣٧).

(٢) انظر ترجمتها في «السير» (٢٠ / ٤٨٩)، و«العبر» (٤ / ١٨٣)، و«النجوم الزاهرة» (٥ / ٣٨٠)، و«الشذرات» (٤ / ٢١٠).

الرجال! النساء ذوات الخمور بات السوار والحجال في تلك الأيام، أيام الفتن السود، أيام الشقاء والخمود، سعيهنّ البليغ وجدهن الشديد بعواطف الشجاعة الكاملة لم يزل جديداً! فكم من نساء قد سفرن في أيام هذه الفتن بكمالهن بدوراً، وتركن دويَّ فضلهنّ يدوي لهنّ دهوراً؛ فهل من رجل ـ وإن كان عليماً حق عليم ـ يذكر أسمائهن ـ فضلاً عن مآثرهن ـ؟ كلا، قد خرست الألسن وعميت القلوب وعمت البلوى؛ فلا مشتكى إلا إلى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم على رغم الفناء حفظتها بطون الأسفار؛ فيا لنا من الأسف والعار، فمن محدثات هذا العصر الحَرِيَّة بالذكر الشيخة الجليلة مسندة خراسان زينب بنت الشِّعرى[1] (ت ٦١٥هـ)، كانت صالحة، معمرة، مكثرة، سمعت «الصحيح» من الفارسي ووجيه بن طاهر، ومسندة الشام الشيخة الصالحة المعمِّرة كريمة[2] نعتها الذهبي؛ فقال: «كانت امرأةً صالحةً جليلةً، طويلة الروح على الطلبة لا تملُّ من الرواية»، وأفاد أنها روت «الصحيح» غير مرة، وقال: «وخرَّج لها زكيُّ الدين البرزاليّ مشيخة في ثمانية أجزاء سمعناها»[3]، وصفية[4] (ت ٦٤٦هـ)، بنات عبد الوهاب، وزينب بنت المكي (ت ٦٨٨هـ)، أما زينب بنت الشِّعرى؛ فكفى لها فضلاً أن ينتمي إلى شرف تتلمذها أمثال ابن خَلِّكان الفاضل الشهير، وكريمة قد عرفت بمسندة

(1) لها ترجمة في «التكملة» (رقم ١٦٤٨)، و«وفيات الأعيان» (٢ / ٣٤٤)، و«السير» (٢٢ / ٨٥)، و«النجوم الزاهرة» (٦ / ٢٢٦)، و«الشذرات» (٥ / ٦٣).

(2) لها ترجمة في «التكملة» (رقم ١٤٣٤)، و«ذيل الروضتين» (١٧٣)، و«تذكرة الحفاظ» (٢ / ١٤٣٤)، و«السير» (٢٣ / ٩٢)، و«شذرات الذهب» (٥ / ٢١٢)، وانظر ما قدمناه عنها عند الكلام على شيخات المنذري.

(3) «السير» (٢٣ / ٩٣).

(4) لها ترجمة في «السير» (٢٣ / ٢٧٠)، و«العبر» (٥ / ١٨٨)، و«النجوم الزاهرة» (٦ / ٣١٦)، و«الشذرات» (٥ / ٢٣٤).

الشام، وزينب قد امتازت بحضور حلقة دروسها أفواج من الطلاب»[1].

ومن أشهر محدِّثات هذا العصر أيضاً:

أم عبد الكريم فاطمة بنت المحدِّث التاجر أبي الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري البَلَنسيّ، (ت ٦٠٠هـ).

نعتها الذهبي بقوله: «الشيخة الجليلة المسندة»[2]، وقال: «وسمعت حضوراً في الثالثة من فاطمة الجُوْزدانية جملةً من «المعجم الكبير»، وحضرت ببغداد في سنة خمس وعشرين[3] على هبة الله ابن الحُصَيْن وزاهر ابن طاهر، وأبي غالبٍ ابن البنَّاء، وسمعتْ بعدُ من أبيها ومن هبة الله بن الطَّبَر، والقاضي أبي بكر، ويحيى بن حُبَيش الفارقيِّ، ويحيى ابن البنَّاء، وأبي منصور القزاء، وعدَّة، وأجاز لها خلق.

وحدَّثتْ بدمشق وبمصر، تزوَّج بها الرئيس زين الدين ابن نُجيَّة الواعظ، وسكن بها بدمشق، ثم بمصر، ورأتْ عزّاً وجاهاً»[4].

حدث عنها جماعة؛ منهم: الحافظ الضياء، وخطيب مَردا، ومحمد ابن محمد ابن الوزَّان الحنفي، ومحمد ابن الشيخ الشاطبي.

وروى عنها بالإجازة المنذري، وآخر من روى عنها بالإجازة في الدنيا

(1) «المباحث العلمية من المقالات السنية» مقالة الأستاذ محمد زبير الصديقي، «السير الحثيث في تاريخ تدوين الحديث» (٢٤٩ ـ ٢٥٠) بتصرف وزيادة.

(2) «السير» (٢١ / ٤١٢).

(3) كان عمرها آنذاك ثلاث سنوات؛ إذ مولدها في سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة بأصبهان.

(4) «السير» (٢١ / ٤١٢ ـ ٤١٣).

شيخ الذهبي أحمد بن أبي الخير سلامة[1].

ومن محدثات المئة السابعة ستُّ الكتبة نعمة بنت علي بن يحيى بن علي بن الطَّراح (ت ٦٠٤هـ)، اعتنى بها جدها عناية حسنة، وسمعت منه كثيراً من كتب الخطيب البغدادي، مثل: «الكفاية»، و«البخلاء»، و«الجامع»، و«السابق واللاحق»، و«القنوت»، وأشياء.

وسمعت من أبي شجاع البسطامي، وأجاز لها محمد بن علي بن أبي ذر الصَّالحاني والفُراوي، وحدث عنها غير واحدٍ من المحدثين؛ مثل: الضياء، وابن خليل، واليْلداني، والمنذري، وابن أبي عمر، وفخر الدين ابن البخاري، روى عنها في «مشيخته» التي من تخريج ابن الظاهري الحنفي في سنة إحدى وست مئة بدمشق، ونعتها بـ«الشيخة المسندة»[2].

ومن اللواتي يُذكرن بالعلم والرواية، وممن لهنّ بحديث رسول الله ﷺ عناية؛ عفيفة بنت أبي بكر بن عبد الله، أم هانىء الفارفانية[3] ـ بفائين ـ، (ت ٦٠٦هـ)، سمعت «المعجم الكبير» بتمامه وكماله، و«المعجم الصغير» كلاهما للطبراني، و«الفتن» لنعيم بن حماد، وأجاز لها جماعة من البغادِدَة، وسمع منها ابن نقطة[4] «المعجم الكبير» و«الفتن»، نعتها الذهبي بقوله:

(١) لها ترجمة في «التكملة لوفيات النقلة» (رقم ٧٧٣)، و«العبر» (٤ / ٣١٤)، و«النجوم الزاهرة» (٦ / ١٨٧)، و«شذرات الذهب» (٤ / ٣٤٧).

(٢) انظر: «مشيخة الفخر ابن البخاري» (ق ١٢٤)، ولها ترجمة في «التكملة» (رقم ١٠٠٨)، و«العبر» (٥ / ١٠)، و«السير» (٢١ / ٤٣٤)، و«ذيل الروضتين» (٦٣)، و«النجوم الزاهرة» (٦ / ١٩٥)، وانظر ما تقدم (ص ٤٠).

(٣) لها ترجمة في «التكملة» (رقم ١١٣٢)، و«العبر» (٥ / ١٧)، و«النجوم الزاهرة» (٦ / ٢٠٠)، و«الشذرات» (٥ / ١٩)، و«أعلام النساء» (٣ / ٢٩٩).

(٤) انظر: «التقييد» (١ / ٣٢٦).

«الشيخة الجليلة، المعمَّرة، مُسْندة أصبهان»[1].

ومنهن أيضاً: عين الشمس بنت أحمد بن أبي الفرج أم النُّور الثقفية الأصبهانية، مُسْنَدة وقتها، (ت ٦١٠هـ)، تفردت في الدنيا في الرواية عن إسماعيل بن الإخشيذ ومحمد بن علي بن أبي ذر الصَّالحاني، وسمعت منه «جزء أبي الشيخ»، ولها مرويات كثيرة جدّاً، منها: «الدِّيات» لابن أبي عاصم، و«التوبة»، و«عوالي القبَّاب»، و«أحاديث بكر بن بكّار» و«جزء أبي الزبير عن غير جابر»، وأشياء[2].

ومنهنّ أيضاً: أم عبد الله ياسمين بنت سالم بن علي بن سلامة بن البيطار الحريمية (ت ٦٣٤هـ)، نعتها مترجموها بـ«الشيخة المعمّرة المباركة»، وروت جزءاً عن أبي المظفر هبة الله ابن الشِّبلي تفرَّدتْ به[3].

ووجد في هٰذا العصر كثير من المتفننات في العلم؛ فكانت أم العز بنت محمد بن علي بن أبي غالب العبدري الداني (ت ٦١٠هـ) ـ مثلاً ـ تجمع مع إتقانها علم الحديث وتدريسه القراءات، فكانت تحسن القراءات السبع، وسمعت بقراءتها مرتين «صحيح البخاري» من أبيها[4].

وكانت أمة اللطيف بنت عبد الرحمٰن (المتوفاة نيف وأربعين وست مئة) من المصنفات المتقنات، وتأسف عبد القادر بدران بعدم ظفره بترجمة مفصَّلة لها، ونعتها بـ«العالمة»، و«الفاضلة»، و«صاحبة التصانيف»، وذكر من

(١) «السير» (٢١ / ٤٨٢).

(٢) لها ترجمة في «التكملة» (رقم ١٢٨٨)، و«العبر» (٥ / ٣٦)، و«السير» (٢٢ / ٢٣)، و«النجوم الزاهرة» (٦ / ٢٠٩)، و«شذرات الذهب» (٥ / ٤٢).

(٣) لها ترجمة في «التكملة» (رقم ٢٦٨٩)، و«العبر» (٥ / ١٤١)، و«السير» (٢٣ / ١٣)، و«شذرات الذهب» (٥ / ١٦٩).

(٤) «أعلام النساء» (٣ / ٢٦٩).

جملتها لها: «التسديد في شهادة التوحيد»، و«بر الوالدين»، وأنشأت داراً للحديث، كانت تدرِّس فيها[1].

وقد ترقى عدد المحدثات في غضون القرن الثامن والتاسع رقيّاً بيّناً كما يدل على ذلك ما سرده الحافظ الحجة الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى من سير سبعين ومئة من المحدثات في تأليفه «الدرر الكامنة في أحوال رجال المئة الثامنة»، وغيرهن من الفاضلات الكثيرات قد ذكرهنّ هٰذا الإمام في تأليفه الآخر «إنباء الغمر»، وفيهنّ كثير ممن قد حضر دروسهنّ وتشرف بالاستفادة منهنّ مثل هٰذا الإمام.

وقد روى رحمه الله تعالى مئات الكتب والأجزاء والمسانيد والصحاح من خلال نساء بسنده عنهن إلى أصحابها، يظهر هٰذا جليّاً لمن تصفح كتابه «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس».

وقد وصل الحال بهٰذا الإمام أنه أفرد مشايخ بعض من أخذ عنهن؛ لسعة روايتهن وكثرة مشايخهن، وقد كتب في ذلك كتابين:

أحدهما: المعجم للحرة مريم، أو معجم الشيخة مريم.

خرج فيه شيوخ المحدثة مريم بنت الأذرعي (ت ٨٠٥هـ)، وأشار إلى مرويّاتها عنهم، وعاشت هٰذه الشيخة إلى أن تفردت برواية حديث السِّلَفي بالسَّماع المتصل، وهي آخر من حدث عن الدبوسي بالسماع المتصل.

والآخر: المشيخة الباسمة للقبابي وفاطمة.

خرج فيه الحافظ ابن حجر أسماء شيوخ المسند نجم الدين عبد الرحمٰن بن عمر القبابي المقدسي (ت ٨٣٨هـ) مضيفاً إلى ذلك شيوخ المسندة المعمرة فاطمة بنت خليل بن أحمد المقدس الكناني (ت ٨٣٨هـ)

(١) «منادمة الأطلال» (٢٣٨).

الذين أجازوا لها مع مروياتهم[1].

ومن المحدثات اللاتي كنّ في القرن التاسع ما ذكر تلميذ الحافظ ابن حجر العلامة الإمام السخاوي في تأليفه «الضوء اللامع»، وأفرد تراجمهن في الجزء الثاني عشر، وفي هٰذا العصر الزاهر قد تشرف العلامة ابن فهد بالأخذ عن ثلاثين ومئة محدثة قد ذكرهنّ في تأليفه البديع «معجم الشيوخ»[2].

وأكثر محدثات القرن الثامن والتاسع قد عددن في سلك كبار المحدِّثين، مثل:

الشيخة الصالحة المسندة المكثرة ست العرب بنت محمد ابن الشيخ فخر الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد، الشهير جدها بـ (ابن البخاري) المقدسية الصالحية، (ت ٧٦٧هـ)، حضرت على جدِّها؛ فأكثرتْ، وحدَّثت؛ فأوسعتْ، وانتشر عنها حديث كثير، وسمع عليها الأئمة والرَّحّالون، وطال عمُرها وانتُفع بها[3].

قال ولي الدين أبو زُرعة العراقي: «وحضرتُ عليها كثيراً من مرويَّاتها، حدثنا عنها والدي والهيثمي مرات عديدة»[4].

ومثل الشيخة المسندة الصالحة الأصيلة أُم أبيها ـ كذا كناها والدها، وبعضهم يكنيها أم البر ـ جويرية بنت الشيخ الإمام المحدِّث شهاب الدين أحمد بن أحمد بن الحسين الهكّاريّ، (ت ٧٨٣هـ)، سمعت بإفادة والدها على أبي الحسن علي بن نصر الله ابن الصواف، مسموعه من «سنن

(١) انظر: «ابن حجر ودراسة مصنفاته» (١ / ٤٩٤ - ٤٩٦).

(٢) وهو مطبوع عن دار اليمامة، تحقيق محمد زاهي.

(٣) لها ترجمة في «وفيات ابن رافع» (رقم ٨٣٥)، و«الدرر الكامنة» ٢ / ٢٢٠)، و«القلائد الجوهرية» (٢ / ٣٠٧)، و«شذرات الذهب» (٦ / ٢٠٨).

(٤) «الذيل على العبر» (١ / ١٩٩).

النسائي» وهو غالبه، و«مسند الحميدي»، وعلى أبي الحَسَن عَليّ بن عيسى ابن القَيِّم قِطْعة من «صحيح» الإسماعيليّ، والأوَّل من «حديث» سُفيان بن عُيينـة وعلى وَزيرة بنت عُمـر التَّنـوخيَّة وأبي العَبَّـاس الحَجَّـار «صحيح البُخاريِّ»، وعلى أبي الحَسَن عليّ بن محمد بن هارون الثَّعلبيِّ مجلساً من «أمـالي نصر المَقدسِيِّ» وغير ذلك. وحَضَرَتْ في الثَّالثة على الشَّريف عِزِّ الدِّين موسى بن عَليّ بن أبي طالب الحُسَينيِّ «مشيخة الإربليِّ».

وسَمِعَت على محمد بن محمد بن عيسى الطَّبَّـاخ «الفرج بعد الشدَّة» لابن أبي الدُّنيا، وعلى زينب بنت شُكر الثَّاني من «حديث ابن السَّمَّاك»، وعلى مِثقال الأشرفيِّ «جُزء فيه مجلسا البَحِيريِّ والشافعي»، وعلى حسن بن عمر الكردي، «مُسندي الدارمي، وعبد بن حميد»، وعلى الإمام كمال الدين أحمد بن محمد بن محمد الشَّريشيّ «جزء الحسن بن عرفة».

قال أبو زرعة وليّ الدين العراقي: «وسمعتُ جميع ما ذكرتُه عليها، وسمعتْ غير ذلك على غير هؤلاء، وأكثر المحدِّثون السَّماع عليها، وطال عُمرها وحصل النفع بها في ذلك، وكانت جيدة صالحة رحمها الله»[1].

ومن محدثات هذا العصر أيضاً:

الشيخة المسندة أم الحسن فاطمة بنت الإمام شهاب الدين أحمد بن قاسم بن عبد الرَّحمن بن أبي بكر العُمَريِّ الحَرازيِّ، أُمُّ نجم الدِّين المَكِّيَّة[2]، (ت ٧٨٣هـ).

(١) «الذيل على العبر» (٢ / ٥١٤)، ولها ترجمة في «إنباء المغر» (٢ / ٦٨)، و«الدرر الكامنة» (٢ / ٨١)، و«النجوم الزاهرة» (١١ / ٢٢١)، و«شذرات الذهب» (٦ / ٢٨٠).

(٢) لها ترجمة في «العقد الثمين» (٨ / ٢٩٥)، و«إنباء الغمر» (٢ / ٧٧)، و«الدرر الكامنة» (٣ / ٣٠٢)، و«الذيل على العبر» (٢ / ٥٢٦)، و«شذرات الذهب» (٦ / ٢٨٠)، و«أعلام النساء» (٤ / ٢١).

قدمت المدينة للزيارة، فتوفِّيت بها ودُفِنَت من غَدِها بالبقيع.

سمعت على الأخوين الصَّفي أحمد والرَّضي إبراهيم الطَّبريَّيْن وغيرهما، وأكثرت من السَّماع.

وحدَّثت وسمع أبو زرعة العراقي عليها.

وعُمِّرَت، وصارت مُسنِدة مكَّة، وهي من أهل الخير والدين والصلاح.

ومنهن أيضاً:

الشيخة المُسنِدة أمُّ الحسن فاطمة بنت الإمام شهاب الدِّين أحمد ابن الإمام رضي الدين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الطَّبريِّ المكيَّة[1]، (ت ٧٨٣هـ).

إمام المقام أبوها وجدها وأخَواها.

سَمِعَت على جدها أجزاءً منها: «الأربعون المختارة» لابن مَنْدي، و«التُّسـاعيَّات» التي خَرَّجهـا الـرَّضي الطَّبريُّ لنفسه، وغير ذلك، وحدثت وسمع عليها أبو زرعة العراقي.

ومن محدثات هذا العصر أيضاً:

سلمى بنت محمـد بن الجَزَري، ابنـة القارىء المشهور ترجم لها والدها فقال:

«هي ابنتي، نفع الله بها ووفَّقها لما فيه صلاحها ديناً وأخرى»، ثم بيَّن طلبها للعلم وتفنُّنها فيه؛ فقال: «شَرَعت في حفظ القرآن سنة (٨١٣هـ)، وحفـظت مقدمة التجويد وعرضتها، ومقدمة النحو، ثم حفظت طيبة النشر

(١) لها ترجمة في «العقد الثمين» (٨ / ٢٩٦)، و«إنباء الغمر» (٢ / ٧٧)، و«الذيل على العبر» (٢ / ٥٢٧)، و«أعلام النساء» (٤ / ٢٧).

«الألفية»، وعرضته حفظاً بالقراءات العشر، وأكملته في الثاني عشر من ربيع الأول سنة (٨٣٢هـ) قراءة صحيحة مجوَّدة مشتملة على جميع وجوه القراءات، بحيث وصلت في الاستحضار إلى غاية لا يشاركها أحدٌ في وقتها.

وتعلَّمت العروض والعربية، وكتب الخط الجيِّد، ونظمت بالعربي والفارسي، هٰذا وهي في ازدياد إن شاء الله تعالى».

ثم ذكر بيت القصيد من ترجمتنا لها، مبيناً أخذها علم الحديث؛ فقال: «وقرأت بنفسها الحديث، وسمعت مني وعليَّ كثيراً بحيث صار لها فيه أهلية وافرة؛ فالله يسعدها ويوفقها لخير الدنيا والآخرة»[١].

ومنهن أيضاً:

أم هانىء مريم بنت فخر الدين محمد الهورينية (ت ٨٧١هـ)، قد حفظت القرآن في صباها، وبعد أن أتقنت العلوم المتداولة؛ ارتحلت إلى مكة المكرمة ومصر، وهناك أخذت الحديث عن حذاق المحدثين، وأجاز لها العراقي والهيثمي وابن الملقِّن، وبعد تكميل العلوم أخذت تقرىء الحديث، وتلقَّى الشهادة منها المحدثون، وكانت رحمها الله تعالى بارعة في الخط مالكة أعنة النظم والنثر، قد أذعن لحذقها في الحديث المحدثون، وناهيك بفضل من كان مثل العلامة ابن فهد لها تلميذاً، وكانت رحمها الله تعالى تقية صالحة صوامة، وحجت ثلاث عشرة حجة[٢].

وكذلك باي خاتون بنت أبي الحسن (ت ٨٦٤هـ)، قد أخذت الحديث عن أبي بكر المزي الأكبر والأصغر، وتلقت الشهادات من المحدثين والمحدثات، وأقرأت الحديث في مصر والشام[٣]، وغيرهنَّ

(١) «غاية النهاية» (١ / ٣١٠).

(٢) لها ترجمة في «الضوء اللامع» (١٢ / ١٥٦ - ١٥٧).

(٣) «المباحث العلميَّة» (ص ٢٥١).

كثيراتٌ جدّاً، وقد ذكرهنّ ابن فهد في «معجم الشيوخ»، وأبو زرعة العراقي في «الذيل على العبر»[١]، وغيرهما.

ووجد في هٰذين القرنين كثير من النابغات في العلم؛ فكانت بعضهن مثل عائشة بنت علي بن أبي الفتح، وتدعى «ست العيش» (ت ٨٤٠هـ) عالمة جليلة، مشاركة في سائر العلوم والفنون، لها من الحديث والرواية نصيب وافر؛ فها هي تحضر على جدها لأمها خمسة مجالس من «الفوائد الغيلانيات» وعلى غيره «فوائد ابن بشران»، ومع هٰذا؛ كانت أديبة لها عناية فائقة بكتب اللغة والأدب والشعر، فمن مروياتها «فضل الخيل» للدمياطي، وكانت حافظة لكثير من الأشعار، سيما «ديوان البهاء زهير»، وكانت مستحضرة للسيرة النبوية، تكاد تذكر الغزوة بتمامها، وكانت سريعة الحفظ؛ فكانت تحفظ من قراءتها للقصيدة أو غيرها من مرة واحدة، ومع هٰذا؛ فكانت لها مشاركة في الفقه وتفهم فيه أيضاً.

قال البقاعي: «كتبت الكتابة الحسنة، وكانت من الذكاء على جانب كبير تطالع كتب الفقه؛ فتفهم، وتحفظ شعراً كثيراً، مرت على «ديوان البهاء زهير» و«مصارع العشاق» و«السيرة النبوية» لابن الفرات، و«سلوان المطاع» لابن ظفر؛ فكانت تحفظ غالبها، وتذاكر به، وكانت خيِّرة ديِّنة من صباها إلى أن توفيت على سمت واحد في ملازمة الصلاة والعبادة والأذكار»[٢].

والذي يسنح لي بمعرفتي أن النساء أخذ ميلهنّ إلى الحديث وشغفهن به يتقهقر بعد القرن التاسع، ويدل على ذلك أن العيدروسيّ في «النور السافر»، والمحبي في «خلاصة الأثر»، ومحمد بن عبد الله النجدي في

(١) انظر منه ـ على سبيل المثال ـ: (١ / ٦٦، ٩٣ ـ ٩٤، ١٦٦، ١٨٠، ٢٨٥، ٢ / ٥١٢).

(٢) «أعلام النساء» (٣ / ١٨١ ـ ١٨٢).

«السحب الوابلة» لم يذكروا في كتبهم من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر؛ أي: في ثلاثة قرون إلا بضع نسوة قد برزن في الحديث، ولم تعدّ فيهن أكثر من ثلاث في طبقة الكبار من المحدثين.

ولكنه لا ينتج مما قلنا آنفاً أن شغف النساء بالحديث كان تلاشى في تلك القرون مطلقاً لأن أسماء بنت كمال الدين موسى الضجاعي الزَّبيديَّة اليمنيّة (ت ٩٠٤هـ) كانت رحمها الله تعالى تدرس العلوم الإسلامية عامة والحديث خاصة، وكان لها في عمال الدولة وولاتها نفوذ تام ومكان مكين؛ حتى كانت تشفع في الأمور إذا شفعت بجلالتها وعظمتها عندهم.

قال العيدروسيّ: «كانت صالحةً، عابدةً، قارئةً القرآن، تقرأ التفسير وكتب الحديث، وتسمع النساء وتعظهنّ وتؤدّبهنّ، كان لقولها وقع في القلوب، وربما كتبت الشفاعات إلى السلطان والقاضي والأمير؛ فتقبل شفاعتها ولا ترد».

وقال: «ولم يخلف بعدها مثلها في الدين والصَّلاح في بنات جنسها»[1].

وكذلك أمة الخالق المعمرة الشيخة المسندة الرحلة أم الخير الدمشقية الصالحية، (ت ٩٠٢هـ)، وهي آخر من يروي «صحيح البخاري» عن أصحاب الحجّار، نزل أهل الأرض درجة في رواية البخاري بموتها[2].

وكذلك عائشة بنت محمد بن أحمد قرينة مصلح الدين (ت ٩٠٦هـ)، قد درَّست كثيراً من الطلاب منهم ابن طولون أمير مصر، ثم فوّض إليها

---

(١) «النور السافر» (٣٩).

(٢) «النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل» (ص ٥٧)، ولها ترجمة في «الكواكب السائرة» (١ / ١٦٢، ٢ / ٣٦)، و«شذرات الذهب» (٨ / ١٤).

التدريس بدمشق في المدرسة الصالحية.

وكذلك من فواضل نساء عصرها ولها رواية في الحديث؛ أم الهناء بنت محمد البدراني المصرية[1] (ت ٩١١هـ)، وخديجة بنت محمد بن إبراهيم المقري العامريَّة[2] (ت ٩٣٥هـ)، كانت فقيهة فاضلة، ذات صلاح ودين، وأخذت عن جماعة، ومن مروياتها «صحيح البخاري»، وباي خاتون بنت إبراهيم بن أحمد الحلبية الشافعية[3] (ت ٩٤٢هـ)، وبوران بنت محمد القاضي ابن الشحنة[4] (ت ٩٣٨هـ)، وفاطمة بنت يوسف القاضي جمال الدين التادفي الحنبلي الحنفي[5] (ت ٩٢٥هـ)، كان لها سماع من الشيخ المحدث برهان الدين الحلبي، وفاطمة بنت عبد القادر بن محمد بن عثمان الشهيرة بـ«بنت قريمزان»[6]، (ت ٩٦٦هـ)، كانت تعد أفضل الفضلاء في عصرها، تولت مشيخة العادلية والدجاجيَّة[7] معاً، كان لها خط جيد، ونسخت كتباً كثيرة، وكان لها عبارة فصيحة وتعفُّف وتقشُّف وملازمة للصلاة حتى في زمن المرض، وكانت تقول: «وعن زوجي ـ وهو كمال الدين محمد ابن مير جمال الدين الأردبيلي الشافعي ـ أخذتُ العلم».

---

(١) «أعلام النساء» (٥ / ٢١٥)، و«الكواكب السائرة» (١ / ١٦٢).

(٢) «أعلام النساء» (١ / ٣٤١)، و«الكواكب السائرة» (٢ / ١٤١).

(٣) «الكواكب السائرة» (٢ / ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٤) «الكواكب السائرة» (٢ / ١٢٩).

(٥) «النعت الأكمل» (٩٨)، و«الكواكب السائرة» (١ / ٢٩٣)، و«أعلام النساء» (٤ / ١٥٥).

(٦) «الكواكب السائرة» (٢ / ٢٣٨)، و«أعلام النساء» (٤ / ٧٤).

(٧) كذا في «الكواكب السائرة» وفي «أعلام النساء»: «الزجاجيَّة» وهو الصواب، وقد أسهب الشيخ محمد راغب الطباخ في تعريفها في كتابه «إعلام النبلاء» (٤ / ٢٣٨)، ومما قال: «سمّيت باسم السوق الذي هي فيه، وكان هناك معمل للزجاج».

ومن شهيرات المئة العاشرة: زينب بنت محمد بن محمد بن أحمد الغزي الشافعية (ت ٩٨٠هـ)، ترجم لها ابن أخيها نجم الدين الغزِّي، وسرد شيئاً من شعرها الحسن، وقال عنها: «كانت من أفاضل النساء من أهل العلم والدين والصلاح»، وقال: «وقرأتْ على أخيها شقيقها الشيخ الوالد كثيراً، قرأت عليه «تنقيح اللباب» وفي «المنهج» جانباً، وكتبت له كتباً بخطها»، وقال: «وشعرها في المواعظ وغيرها في غاية الرقّة والمتانة، وكانت من أعاجيب العصر، وأفاريد الدهر»(١).

أما القرن الحادي عشر؛ فتقهقر حب النساء للحديث فيه وتراجع، ولم نظفر إلا بعدد قليل ممن له اشتغال منهن بهذا العلم الشريف مثل بنت علي النشار العاملي (ت ١٠٣١هـ)، كانت عالمة فقيهة محدثة، تدرس الفقه والحديث، وكانت النِّسوة يقرأن عليها، وكان لها شغف بالكتب، وورثت من أبيها أربعة آلاف مجلد من الأعلاق النفيسة والكتب النادرة(٢).

وظفرتُ من القرن الثاني عشر بقريش بنت عبد القادر الطبرية المكية (ت ١١٠٧هـ)، ونعتت بـ «فقيهة عالمة بالحديث من أهل مكة، كانت تُقرأ عليها كتب الحديث في منزلها أخذت عن أبيها وغيره»(٣).

أما القرن الثالث عشر؛ فقد حظيتُ بأكثر من فاضلة لها مساهمة ومشاركة في علم الحديث من خلال طلبه وإقرائه وإجازته وتدريسه من مثل:

تلك التي «لها في حسن الخط فضل لا ينكر، قد تضلعت بالعلوم الإسلامية ونسخت بيدها كتباً كثيرة، وجمعت مكتبة شائقة، وكانت في الحديث ذات باع طويل ونظر غائر ومادة غزيرة، ظفرت بشهادات الحديث

(١) «الكواكب السائرة» (٣ / ١٥٥). (٢) «أعلام النساء» (٣ / ٣٣٢ - ٣٣٣).

(٣) «أعلام النساء» (٤ / ٢٠٦)، و«الأعلام» للزركلي (٥ / ١٩٥)، و«فهرس الفهارس» (٢ / ٩٤١ - ٩٤٣) (مهم جداً).

من الأعلام في تلك الأيام، ومن حيث أنها محدثة كان لها صيت طائر، وفي آخر عمرها هاجرت إلى مكة المكرمة، زادها الله شرفاً وتعظيماً وجعلتها لها سكنى، وهناك اشتغلت بتأسيس مكتبة عمومية، وقد حضر درسها هناك المحدثون الكبار، ونالوا منها الشهادات؛ فممن يجدر منهم بالذكر الشيخ عمر الحنفي والشيخ محمد صالح، ثم بعد أيام وقفت مكتبتها لله الكريم المتعال، ثم خرجت إلى مدينة الرسول أبي البتول وتوفيت سنة سبع وأربعين بعد المئتين وألف، رحمها الله تعالى رحمة الأبرار وأسكنها جنات تجري من تحتها الأنهار»(١). وهذه هي ترجمتها: فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيرية، وتعرف بالشيخة الفُضَيْلِيَّة؛ - بضم الفاء، وفتح الضاد المعجمة، وإسكان الياء التحتية وبعدها لام مكسورة فياء تحتية مشددة -؛ الشيخة الصالحة العالمة العابدة الزاهدة، ولدت في بلدة سيدنا الزبير رضي الله عنه قبيل المئتين والألف، ونشأت بها وقرأت على شيوخها وأكثرت عن الشيخ إبراهيم بن جديد؛ فأخذت عنه التفسير والحديث والأصلين والفقه والتصوف، وقرأت على غيره كثيراً، وتوجهت إلى العلم توجهاً تامّاً وتعلمت الخطّ من صغرها فأتقنته، وكتبت كتباً كثيرة في فنون شتى وخطها حسن، وصار لها همة في جمع الكتب؛ فجمعت كتباً جليلة في سائر الفنون، ولها محبة في الحديث وأهله؛ فسمعت كثيراً من المسلسلات وقرأت شيئاً كثيراً من كتب الحديث، وأجازها جمع من العلماء، واشتهرت في مصرها بل وفي عصرها، وكاتبها الأفاضل من الآفاق وكاتبتهم بأبلغ عبارات وأعظم مدح، ثم حجت وزارت ورجعت إلى مكة المشرفة وأقامت بها في باب الزيادة في بيت ملاصق للمسجد الحرام ترى منه الكعبة المشرفة، وعزمت على الإقامة فيها إلى الممات؛ فتردد إليها غالب علماء مكة المشرفة وسمعوا منها وأسمعوها وأجازتهم وأجازوها، فصار للشيخة المذكورة شهرة عظيمة وصيت بالغ،

(١) مقالة «السير الحثيث» (ص ٢٥٢).

وأسندت كثيراً من المسلسلات وأرشدت خلقاً من الناس ولا سيما النساء؛ فقد لازمنها ملازمة كلية وانتفعن بها انتفاعاً ظاهراً، وصلحت أحوال كثيرٍ منهن وصار من يتردد إليها منهنّ يعرف من بين النساء بالدين والتقوى والورع والمواظبة على فرائض الدين والقناعة والصبر وحسن السلوك، وكان لها شهرة عظيمة ولم نسمع في هٰذا العصر ولا فيما قبله بأعصار بمثلها، ولا من يدانيها في عملها وصلاحها وزهدها وورعها وجمعها للفضائل، وقفت كتباً جميعها على طلبة العلم من الحنابلة ولٰكنها ذهبت شذر مذر إلا أقلها، وتوفيت رحمها الله سنة (١٢٤٧هـ)، ودفنت بالمَعْلاة في شعبة النور رحمها الله تعالى[1].

ومن مثل الفاضلة فاطمة شمس جهان الجركسيّة المدنية، كانت فاضلة، قطنت المدينة، وأجازت عبد الحي الكتاني عن زوجها شيخ الإسلام عارف حكمت، (ت ١٢٧٢هـ)[2].

وخاتمة المحدثات التي وقفتُ عليها في «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»[3] للشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى هي الشيخة مريم بنت محمد بن طه العقاد الحلبيَّة الشافعية، أم عمران المقرئة، المسندة، الكاملة، العالمة، العاملة، (المتوفاة في حدود سنة ١٢٢٠هـ)، مولدها بحلب سنة ست وخمسين ومئة وألف، وقرأت القرآن العظيم وبعض المقدِّمات على والدها وانتفعت بتربيته، وأجاز لها جماعة من المحدِّثين؛ منهم: والدها، والمسند الكبير العالم العلامة أبو سليمان صالح بن إبراهيم الجنيني، وأجازها بالإجازة العامة.

---

(١) ترجمتها في «المختصر من كتاب نشر النور والزهر» (٢ / ٣٣٨ - ٣٤٠)، و«النعت الأكمل» (٣٥٥ - ٣٥٦)، و«السحب الوابلة (٥١٢ - ٥١٥).

(٢) انظر: «فهر الفهارس والأثبات» (١ / ٧٢٤)، و«أعلام النساء» (٤ / ٦٨).

(٣) (٧ / ١٦٦ - ١٦٧).

وقد اجتمع بها العلامة خليل المرادي حينما كان في حلب عام ألف ومئتين وخمسة وأثنى عليها، وشهد بعلمها وفضلها.

وهناك كثير من الأمثلة يصلح التمثيل بها على عناية النساء بالعلوم الشرعية في العصور المتأخرة، فقد ذكر صاحب «التراتيب الإدارية» أن الشيخ المختار الكنتي الشهير ختم «مختصر خليل» وختمته زوجته في جهة أخرى للنساء.

وهنالك العالمة الفاضلة وقاية، كانت بإحدى مدن ليبيا، وكان يلجأ إليها أفاضل العلماء، ويقولون: «تعالوا بنا نستشير وقاية؛ فعصابتها خير من عمائمنا»[1].

وقال الشيخ عطية محمد سالم حفظه الله: «فقد رأيت بنفسي وأنا مدرس بالأحساء نسخة لـ «سنن أبي داود» عند آل المبارك وعليها تعليق لأخت صلاح الدين الأيوبي، وذكر صاحب «التراتيب الإدارية» قوله: «وقد ثبت عن كثير من نساء أهل الصحراء الإفريقية خصوصاً شنقيط «سنجط» وهي المعروفة الآن بموريتانيا، وتيتبكتوا، وقبيلة كنت؛ العجبُ حتى جاء أن الشيخ المختار الكنتي الشهير ختم «مختصر خليل» للرجال، وختمته زوجته في جهة أخرى للنساء» اهـ[2].

ومما يؤيد ما ذكره أننا ونحن في بعثة الجامعة الإسلامية لإفريقيا سمعنا ونحن في مدينة أطار وهي على مقربة من مدينة شنجيط المذكورة؛ سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقاً مئتا فتاة يحفظن «المدونة» كاملة، وقد سمعت في الآونة الأخيرة أنه توجد امرأة تدرس في المسجد النبوي الحديث

---

(١) «المرأة العربية» (٣ / ١٥٥).

(٢) «تتمة أضواء البيان» (٩ / ٣٦٠ - ٣٦١).

والسيرة، واللغة العربية وهي شنقيطية»[١] اهـ.

وقال الأستاذ عبد الله العفيفي: «وأكثر ما عرف به الممتازات من نساء المغرب الأقصى حفظ القرآن الكريم بقراءاته جميعاً، ورواية الحديث، ودرس الفقه والأصول، وما إلى هٰذه من علوم الدين، ويذكر أهل ذٰلك الإقليم ثمانين امرأة من نساء المغرب جمعن إلى النفاذ في ذٰلك كله حفظ «مدونة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه»، وهي أكبر المطوّلات الجامعة في الحديث والفقه»[٢].

وذكر من النسوة اللاتي تخرجن في العلوم الدينية: «السيدة الشريفة فاطمة الزهراء ابنة السيد محمد بن أحمد الإدريسي، تحفظ القرآن الكريم بقراءاته، وتحفظ كثيراً من كتب الفقه والحديث، ولها فوق ذٰلك صلة وثيقة بالعلوم العصرية، ولم تبارح دار أبيها قط، وتخرجت على أبيها وجدها»[٣].

هٰذه أسماء بعض من لهنّ مشاركة في علم الحديث النبوي حتى القرن الثالث عشر الهجري، وكم أكون سعيداً إن استطعتُ أن أُلحق من لها مشاركة بهٰذا العلم في القرنين الأخيرين بهٰذا الركب من الفاضلات والعالمات والمصلحات.

وأُراني في الختام لا أحتاج إلى التركيز على أنني ذكرتُ غيضاً من فيض، وقليلاً من كثير، وما أُهمل وترك لا يقل - إنْ لم يكن أكثر - مما ذكر، فقد حوت مخطوطات كتب الحديث وحواشيها، وكتب أسانيد الحديث أيضاً، وكتب البرامج والأثبات والمشيخات والتراجم - سواء المرتبة على الأزمنة أو كتب تاريخ البلدان أو غيرها - أسماء من تعلّمت الحديث وعلّمته

(١) «تتمة أضواء البيان» (٩ / ٣٦٠ - ٣٦١).

(٢) «المرأة العربية» (٣ / ١٥٠).

(٣) «المرأة العربية» (٣ / ١٥٦).

من النساء، ويجد الواقف على هٰذه الكتب في الحواشي والأسانيد مئات من النساء الراويات كنَّ شقائق للرجال في درس كتب الحديث، وبعضهنّ قد حظين بسهم وافرٍ في تدريسه وإقرائه أيضاً[١].

*****

(١) وانظر بعض من فاتنا ذكره في المراجع الآتية:

- «القند في ذكر علماء سمرقند» (ص ١٤٧، ١٩١، ٤٩٢).

- «ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد» (باب النساء): (٢ / ٣٥٧ - إلى آخر الكتاب).

- «طبقات الحنابلة» (ذكر النساء المذكورات بالسؤال لإمامنا أحمد): (١ / ٤٢٦ - ٤٣٠).

- «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» (ذكر النساء): (ص ٥٠٣ - ٥٢٢).

الفصل الرابع

صور من عناية السلف بتعليم النساء، وصفحات من حب النساء الفاضلات للعلم وإبداعهنّ فيه

أقر رسول الله ﷺ النساء على تعليم الكتابة، وذلك من خلال الحديث الصحيح؛ حديث الشّفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة؛ فقال لي: «ألا تعلِّمين هٰذه رقية النملة، كما علَّمتيها الكتابة»[1].

وقد نازع بعضهم في هٰذا الإقرار مستدلاً بحديث «لا تنزلوهنَّ الغرف، ولا تعلِّموهنَّ الكتابة، وعلِّموهن الغَزل وسورة النور»[2]!!

وهٰذا الحديث الأخير فيه محمد بن إبراهيم الشامي، قال الدارقطني: «كذاب»[3]، وعلى فرض صحته؛ فهو محمول على من يخشى من تعليمها الفساد، أعني: تعليم القراءة والكتابة! وإلا؛ فالنساء من دون الصحابيات إلى وقتنا هٰذا يتعلَّمن القراءة والكتابة، وقد مرَّ بنا جماعةٌ من المحدثات والراويات نُعِتْنَ بـ «الخط الحسن» بل ذكر الذهبي في ترجمة فاطمة بنت الحسن بن علي البغدادي العطار، أم الفضل المعروفة بـ (بنت الأقرع) (ت ٤٨٠هـ) أن المثل كان يُضرب بحسن خطها، قال: «جوَّد الناسُ على خطِّها

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢ / ٣٩٦)، والطبراني في «الأوسط».

(٣) انظر: «مجمع الزوائد» (٤ / ٩٣)، و«الأجوبة الرضيَّة» (ق ١٣٤) للسخاوي.

لبراعةِ حُسْنِه، وهي التي نُدِبَتْ لكتابة كتاب الهُدنة إلى طاغية الروم من جهة الخلافة، وبكتابها يضرب المثل»[1].

وقد ذكر صاحب «التراتيب الإدارية» إجماع السلف على مشروعية تعلم النساء الكتابة؛ قال: «أورد القلقشنديّ أن جماعة من النساء كن يكتبن ولم ير أنَّ أحداً من السَّلف أنكر عليهنَّ».

وقال عبد الواحد المراكشي: «إنه كان بالمربض الشرقي في قرطبة سبعون ومئة امرأة، كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي»[2].

ويذكِّرني الاستدلال بهٰذا الحديث على منع النساء من الكتابة بحديث آخر فيه منعهنّ من الرواية!! ذكره الحافظ أبو الفضل العراقي (ت ٨٠٦هـ) في ترجمة محمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن المعتصم الهاشمي أبو الحسن؛ قال:

«روى حديثاً كذباً؛ فهو آفته، رواه أبو بكر محمد بن الحسين بن فَتْحَوَيْه عن أبيه عن محمد بن علي بن أحمد المذكور؛ قال: حدثنا عبد الرحمٰن بن أبي حاتم، ثنا أبو سعيد الأشج، ثنا عَبْدة بن سليمان عن هشام ابن عُروة عن أبيه عن عائشة؛ قالت: إذا رأيتم النساء يجلسنَ على الكراسي ويَقُلْنَ: حدَّثنا وأخبرنا؛ فأحرقوها بالنار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان آخر الزمان يجلس العلماءُ والفقهاءُ في البيوت وتظهر النساء ويقلن: حدَّثنا وأخبرنا، فإذا رأيتم شيئاً من ذٰلك؛ فأحرقوهُنَّ بالنار» هٰذا حديثٌ منكرٌ ورجاله كلهم ثقات إلا محمد بن علي بن أحمد الهاشمي وهو آفته، وركب

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ٤٨٠)، وانظر: «المنتظم» (٩ / ٤٠)، و«البداية والنهاية» (١٢ / ١٣٤).

(٢) «المرأة ومكانتها» (ص ٥٧).

له هٰذا الإسناد الصحيح، رواه أبو منصور الدَّيْلمي في «مسند الفردوس» عن ابن فتحويه»[1].

وعلى كلٍّ؛ فالمعروف من سيرة نساء السلف الصالح ـ كما مضى ـ أنهنّ حظين بسهم وافر جدّاً من الرواية والعلم والكتابة والتدريس.

ويعجبني هنا ما كتبه الداعية السلفي عبد الحميد بن باديس شارحاً حديث الشِّفاء السابق.

قال رحمه الله تعالى ـ تحت عنوان «الأحكام والفوائد»؛ أي: المستنبطة من الحديث ـ ما نصه:

«فيه مشروعية الرقية، وذٰلك بشرط أن تكون بالكلام المفهوم الذي لا محظور فيه كما دلت عليه الآثار، وإذا كانت الأدوية سبباً للشفاء بخواصها؛ فبعض الأقوال تكون في ذٰلك مثلها، تلك من ناحية البدن وهٰذه من ناحية الروح، وقد دلت على هذا وذاك التجربة وأقرَّت الجميع الشريعة.

وفيه تعلُّم الرقية وتعليمها، مثل كل ما يمكن أن ينتفع به على الوجه المشروع، وفيه حث العارف بشيء مما يحتاج إليه الناس أن ينشره بينهم ويعلمهم إياه.

وفيه تعليم النساء الكتابة، واستدل به على ذٰلك جماعة من الأئمة؛ منهم الخطابي في «شرح السنن»، وصاحب «المنتقى».

وأقوى منه في الاستدلال العمومات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء، فإن مذهب الجماهير وهو المذهب الحق أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا بمخصص يخرجهنّ من نص أو إجماع أو بضرورة طبيعية لأن النساء شقائق الرجال في التكليف، ولا خلاف في أنه إذا اجتمع النساء

(١) «ذيل ميزان الاعتدال» (ص ٤٠٤)، وانظر: «اللسان» (٥ / ٣٠٤).

والرجال ورد الخطاب أو الخبر مذكراً على طريقة التغليب.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُم كَاتِبٌ بِالعَدْلِ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُم فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ**﴾[1].

كيف نص في الثانية على الرجال لما كان الحال مقتضياً لهم، وأطلق في الأولى فدل على أنه لا فرق بين أن يكون الكاتب رجلاً أو امرأة، وهو من أدلـة مشروعية تعلم النساء الكتابة، وكل آية دعت للعلم، قد دعت للكتابة؛ لأن الله قد بين لنا أنه علم بالقلم ليبيِّن لنا أنَّ القلم هو طريق العلم وآلة حفظه وتـدوينـه، وأقسم بالقلم تنويهاً بشأنه، وجاء ذلك كله على الخطاب العام الشامل للنساء شموله للرجال، والعمومات إذا تكاثرت؛ أفادت القطع».

ثم قال تحت عنوان (الاقتداء) ما نصه:

«فاستناداً إلى هٰذه الأدلة وسيراً على ما استفاض في تاريخ الأمة من العالمات الكاتبات الكثيرات؛ علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة، وبذٰلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم»[2].

وقد تكلَّم على هٰذه المسألة بكلام حسنٍ فيه استطراد الشيخ محمد عطية سالم، قال حفظه الله تعالى:

«أما تعليم النساء؛ فليس محل خلاف، والواقع أن هٰذه المسألة واضحة المعالم، إذا نظرت كالآتي:

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) «من هدي النبوَّة» (ص ١٣٦ - ١٣٩).

أولاً: لا شك أن العلم من حيث هو خير من الجهل، والعلم قسمان: علم سماع وتلقي، وهٰذه سيرة زوجات رسول الله ﷺ وعائشة كانت القدوة الحسنـة في ذٰلـك في فقـه الكتاب والسنة، وكم استدركت على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وهٰذا مشهور ومعلوم.

والثـاني: علم تحصيل بالقـراءة والكتابـة، وهـٰـذا يدور مع تحقق المصلحة من عدمها، فمن رأى أن تعليمهن مفسدة؛ منعه، كما روى عن عليّ رضي الله عنه أنه مرَّ على رجل يعلم امرأة الكتابة؛ فقال: لا تزد الشر شرّاً.

وروى عن بعض الحكماء أنه رأى امرأة تتعلم الكتابة، فقال: أفعى تسقى سماً، وأنشدوا الآتي:

مَا لِلنِّسـاءِ وَلِلْكِتَـابَةِ والعِمَـالَـةِ والخِطَابَـه
هٰذا لَنَـا وَلَهُـنَّ مِنَّـا أَنْ يَبِتْـنَ عَلَى جنابَـه

ومثله ما قاله المنفلوطي:

يَا قَوْمِ لَمْ تُخْلَقْ بناتُ الوَرَى لِلْدَّرْسِ وَالطِّرْسِ وَقَالَ وَقِيلِ
لَنَا عُلُومٌ وَلَهَا غَيْرُهَا فَعَلِّمُوهَا كَيْفَ نَشْرُ الغَسِيلِ
والثَّوبُ والإِبْرَةُ فِي كَفِّها طرسَ عَلَيْهِ كُلَّ خطٍّ جَمِيلِ[1]

وهٰذا نظر إلى تعليمهنّ وموقفهنّ من زاوية واحدة، كما قال الشاعر الآخر:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيولِ

---

(١) ومثله قول المعري:

عَلِّمُوهُنَّ الغَزْلَ والنَّسْجَ والـ رَّدْنَ وَخَلُّوا كِتَابَةً وقِراءة
فَصَلاةُ الفَتَاةِ بِالحَمْدِ وبِالإِخْلاصِ تَجْزِي عَنْ يُونُسَ وبَرَاءَة

مع أننا وجدنا في تاريخ المرأة نسوة شاركن في القتال؛ حتى عائشة رضي الله عنها كانت تسقي الماء، وأم سلمة تداوي الجرحى؛ إذ لا يؤخذ قول كل منهما على عمومه».

ثم قال حفظه الله تعالى:

«ويجب أن تكون النظرة لهٰذه المسألة على ضوء واقع الحياة اليوم وفي كل يوم، وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة، ولكن المشكلة تكمن في منهج تعليمها وكيفية تلقيها العلم.

فكان من اللازم أن يكون منهج تعليمها قاصراً على النواحي التي يحسن أن تعمل فيها كالتعليم والطب وكفى.

أما كيفية تعليمها؛ فإن مشكلتها إنما جاءت من الاختلاط في مدرجات الجامعات، وفصول الدراسة في الثانويات في فترة المراهقة وقلة المراقبة، وفي هٰذا يكمن الخطر منها وعليها في آن واحد، فإذا كان لا بدَّ من تعليمها؛ فلا بدَّ أيضاً من المنهج الذي يحقق الغاية منه ويضمن السلامة فيه، والتوفيق من الله سبحانه.

أما ما يخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة؛ فقد وجد ما هو أقرب وأسرع منها لمن شاءت وهو الهاتف في البيوت، فإنه في متناول المتعلمة والجاهلة، والمدار في ذٰلك كله على الحصانة التربوية والمتانة الدينية والقوة الأخلاقية»[1].

وإليك ـ أخي القارىء الكريم ـ صوراً وصفحات من حياة فاضلات وعالمات ومحبات للعلم، نختم بها كتابنا عسى أن يقع بها النَّفعُ، فتشحذ

---

(١) تتمة «أضواء البيان» (تفسير سورة العلق، ١٠ / ٣٥٩ ـ ٣٦٢)، وانظر ـ غير مأمور ـ: «أستاذ المرأة» (ص ٥٦ وما بعدها).

الهِمَمُ وتقوى الرَّغبات وتشتدّ العزائم على طلب العلم عامة والحديث خاصة من قبل النساء اللواتي غلب عليهن ـ هٰذه الأيام ـ الجهل وقصَّر في حقِّهن أولياء الأمور، وهم في ذٰلك آثمون، مضيِّعون ما أوجب الله عليهم من حفظ من هم تحت راعيتهم.

قال بعض أهل العلم في حق ولي الأمر:

«وينبغي له أن يتفقد أهله بمسائل العلم فيما يحتاجون إليه؛ لأنه جاء من تعليم غيرهم طلباً لثواب إرشادهم، فخاصته ومن تحت نظره آكد لأنهم رعيته ومن الخاصة به كما في الحديث: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]، فيعطيهم نصيبهم فيبادر لتعليمهم لآكد الأشياء في الدين أولاً وأنفعها وأعظمها؛ فيعلمهم الإيمان والإسلام، ويجدد عليهم علم ذٰلك وإن كانوا قد علموه، ويعلمهم الإحسان، ويعلمهم الوضوء والاغتسال وصفتهما والتيمم والصلاة وما في ذٰلك كله من الفرائض والسنن والفضائل وكل ما يحتاجون إليه من أمر دينهم الأهم فالأهم»[2].

قال الألوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُم وَأَهْلِيكُم ناراً وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجارَةُ﴾[3]:

«واستدل بها على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهٰؤلاء، وأدخل بعضهم الأولاد في الأنفس؛ لأن الولد بعض من أبيه»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣ / ١١١، رقم ٧١٣٨)، ومسلم في «صحيحه» (رقم ١٨٢٩).

(٢) «المدخل» (١ / ٢٠٩) لابن الحاج.

(٣) التحريم: ٦.

(٤) «روح المعاني» (٢٨ / ١٥٦).

قلت: وقوله «الأولاد» يشمل الذكور والإناث.

* **صورة من عناية عالم بزوجته.**

قال ابن الحاج: «سمعت سيدي أبا محمد رحمه الله يقول لما أن تأهلت: قلت للزوجة: لا تتحركي ولا تتكلمي بكلمة في غيبتي إلا وتعرضيها علي حين آتي؛ لأني مسؤول عن تصرفك كله، كنت مسؤلاً عن نفسي ليس إلا وأنا الآن مسؤول عن نفسي وعنك فأسئل عن عشر صلوات، ثم كذلك في جميع المأمورات، وكل ما أنا مطالب به من الفضائل وغيرها حتى بالغ معها بأن قال لها: إنْ نقلتِ الكوزَ من موضع إلى موضع؛ فأخبريني به قال: وذلك خيفة من أن تتصرف في شيء تظن أنه لا يترتب عليه حكم شرعي، وقد يكون ذلك فيه، فبقيت تخبرني بكل تصرفها إلى أن طال عليها ذلك فبقيت تخبرني بما يظهر لها أن في ذكره فائدة وتسكت عن الباقي؛ فوجدت نفسي قلقاً خيفة أن يكون ما لم يظهر أن فيه فائدة قد يكون فيه ذلك؛ فبقيت إذا دخلت البيت ينطق الله لي جدار البيت حين أدخل فيقول لي جميع تصرفها، فأجلس؛ فتعرض علي كل ما تريده مما يظهر لها أن في ذكره فائدة كما تقدم، فأقول لها: هل بقي شيء؟ فتقول على ما ظهر لها: هو ذاك؛ فأقول لها: وفعلت كذا وكذا؟ وأذكر لها بقية تصرفها؛ فتقول: أوحي بعد رسول الله ﷺ! كان الباب علي مغلقاً ولا أجد معي في البيت أحداً وكل ذلك قد فعلته؛ فمن أخبرك؟ فما بقيت بعد ذلك تتحرك بحركة حتى تخبرني».

ثم علق عليه بقوله: «فانظر رحمك الله تعالى وإيانا كيفية نظرهم إلى تخليص ذممهم؛ فهؤلاء هم الذين فهموا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، وعملوا به»[1].

* **صور من عناية السلف بأهلهم.**

قال ابن الحاج بعد أن فصَّل ما يجب على أولياء الأمور من تعليم ما

(١) «المدخل» (٢ / ٢١٠).

يعولون من النساء من أحكام شرعية تتعلَّق بالطهارة والصلاة والصيام وغير ذلك؛ قال:

«فيحتاج العالم أن يتبتل لتعليم هذه الأحكام للكبير والصغير والذكر والأنثى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «النساء شقائق الرجال»[2]؛ فسوى بين الزوج والزوجة والولد والعبد والأمة في هذه الصفات الجميلة، وما زال السلف رضوان الله عليهم على هذا المنهاج تجد أولادهم وعبيدهم وإماءهم في غالب أمرهم مشتركين في هذه الفضائل كلها.

ألا ترى إلى بنت سعيد بن المسيب رضي الله عنهما لما أن دخل بها زوجها وكان من أحد طلبة والدها، فلما أن أصبح؛ أخذ رداءه يريد أن يخرج، فقالت له زوجته: إلى أين تريد؟ فقال: إلى مجلس سعيد أتعلم العلم، فقالت له: اجلس أُعلِّمك علْمَ سعيد[3].

وكذلك ما روي عن الإمام مالك رحمه الله حين كان يقرأ عليه «الموطأ»، فإن لحن القارىء في حرف أو زاد أو نقص تدق ابنته الباب، فيقول أبوها للقارىء: ارجع فالغلط معك، فيرجع القارىء فيجد الغلط[4].

(١) الأحزاب: ٣٥.

(٢) مضى تخريجه (ص ١٢).

(٣) أورد نحو هذه القصة أبو نعيم في «الحلية» (٢ / ١٦٧ - ١٦٨)، والذهبي في «السير» (٤ / ٢٣٣ - ٢٣٤)، وقال: «تفرد بالحكاية أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، وعلى ضعفه قد احتج به مسلم».

(٤) وقد فصَّل القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١ / ١٠٩ - ١١٠، ط دار الحياة) هذا الخبر؛ فقال: «قال الزبير: كان لمالك ابنة تحفظ علمه (يعني «الموطأ»)، وكانت تقف =

وكذلك ما حكي عن أشهب أنه كان في المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وأنه اشترى خضرة من جارية وكانوا لا يبيعون الخضرة إلا بالخبز؛ فقال لها: إذا كان عشية حين يأتينا الخبز، فائتينا نعطيك الثمن؛ فقالت: ذلك لا يجوز، فقال لها: ولم؟ فقالت: لأنه بيع طعام بطعام غير يد بيد، فسأل عن الجارية؛ فقيل له أنها جارية بنت مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

وعلى هذا الأسلوب كان حالهم، وإنما عينت من عينت تنبيهاً على من عداهم.

وقد كان في زماننا هذا سيدي أبو محمد رحمه الله تعالى، قرأت عليه زوجته الختمة؛ فحفظتها. وكذلك «رسالة الشيخ أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله» ونصف «الموطأ» للإمام مالك رحمه الله تعالى، وكذلك ابنتاها قريبان منها، فإذا كان هذا في زماننا؛ فما بالك بزمان السلف رضوان الله عليهم أجمعين، والعالم أولى من يحمل أهله ومن يلوذ به على طلب المراتب العلية؛ فيجتهد في ذلك جهده، فإنهم آكد رعيته، وأوجبهم عليه وأولاهم به»[1] انتهى.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد؛ فقد اعتنى بعض العلماء والفضلاء

= خلف الباب، فإذا غلط القارئ نقرت الباب فيفطن مالك؛ فيرد عليه، وكان ابنه محمد يجيء وهو يحدث وعلى يده باشق ونعل كتب فيه، وقد أرخى سراويله؛ فيلتفت مالك إلى أصحابه ويقول: «إنما الأدب مع الله، هذا ابني وهذه ابنتي».

قال الفروي: كنا نجلس عنده وابنه يدخل ويخرج ولا يجلس، فيقبل علينا ويقول: «إنَّ مما يهوِّن عليَّ أنَّ هذا الشأن لا يورَّث».

(١) «المدخل» (٢ / ٢١٥).

بحفيداتهم[1]، وبعضهم ببنات إخوانهم[2] وأخواتهم.

*** امرأة تعرض نفسها على عالمٍ لتخدمه.**

قال الحافظ الذهبي في ترجمة أبي نصر السجزي: «هو الحافظ الإمام علم السنة عبيد الله بن سعيد بن حاتم أبو نصر السِّجْزي (المتوفى سنة ٤٤٤)، من أحفظ أهل زمانه للحديث، طَوَّفَ الآفاق في طلب الحديث.

قال الحافظ أبو إسحاق الحبّال: «كنتُ يوماً عند أبي نصر السجزي؛ فدُقَّ الباب، فقمتُ ففتحتهُ، فدخلت امرأة وأخرجتْ كيساً فيه ألفُ دينار، فوضعته بين يدي الشيخ وقالت: أنفِقْها كما ترى. قال: ما المقصود؟ قالت: تتزوَّجُني، ولا حاجة لي في الزواج ولكن لأخدمك، فأمرها بأخذ الكيس وأن تنصرف.

فلما انصرفت؛ قال: خرجتُ من سِجِسْتانَ بنيَّة طلب العلم، ومتى تزوَّجتُ سقَطَ عني هذا الاسم، وما أُوثِرُ على ثواب طلب العلم شيئاً»[3].

*** دعاء والد بأن يزوج الله عالماً من ابنته ووقوع ذلك بعد مضي فترة طويلة من الزَّمن.**

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في ترجمة القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي البغدادي البزَّاز الأنصاري (ت سنة ٥٣٥ ببغداد): «قال الشيخ الصالح أبو القاسم الخزَّاز الصوفي البغدادي: سمعتُ القاضي أبا بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزَّاز الأنصاري يقول:

(١) انظر الخبر الآتي بعنوان: «عناية قاضٍ ببناته وحفيداته».

(٢) انظر في التدليل على ذلك «السير» (٢٣ / ٢٧٠)، وترجم لكثير من النساء ممن لهن صلة بأعمامهن كزينب ابنة شيخ الإسلام ابن تيمية، وست القضاة ابنة أخ ابن كثير.

(٣) «تذكرة الحفاظ» (٣ / ١١١٩).

كنت مجاوراً بمكة حرسها الله تعالى فأصابني يوماً من الأيام جوعٌ شديد لم أجد شيئاً أدفع به عني الجوع، فوجدتُ كيساً من إبريسم مشدوداً بشُرَّابة من إبرِيسَم أيضاً؛ فأخذتُهُ وجئتُ به إلى بيتي، فحللتُهُ فوجدتُ فيه عِقداً من لؤلؤ لم أرَ مثله.

فخرجتُ فإذا بشيخٍ ينادي عليه، ومعه خرقة فيها خمسُ مئة دينارٍ وهو يقول: هٰذا لمن يَرُدُّ علينا الكيسَ الذي فيه اللؤلؤ؛ فقلتُ: أنا محتاج، وأنا جائع، فآخذُ هٰذا الذهب فأنتفع به، وأرُدُّ عليه الكيس.

فقلت له: تعالَ إليَّ فأخذتُهُ وجئتُ به إلى بيتي؛ فأعطاني علامة الكيس وعلامة الشُّرَّابة، وعلامةَ اللؤلؤ وعدده، والخيط الذي هو مشدود به، فأخرجته ودفعته إليه، فسلَّم إليَّ خمسَ مئة دينار، فما أخذتها، وقلت: يجب عليَّ أن أُعيده إليك، ولا آخذَ له جزاءاً، فقال لي: لا بُدَّ أن تأخذ وألحَّ عليَّ كثيراً، فلم أقبل ذٰلك منه، فتركني ومضى.

وأما ما كان مني، فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر؛ فانكسر المركب وغَرِق الناس وهلكتْ أموالهُم، وسلِمْتُ أنا على قطعةٍ من المركب، فبقيتُ مُدَّةً في البحر لا أدري أين أذهب، فوصلتُ إلى جزيرة فيها قوم، فقعدتُ في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليَّ وقال: علِّمني القرآن، فحصلَ لي من أولئك القوم شيء كثير من المال.

ثم إني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف؛ فأخذتُها أقرأ فيها، فقالوا لي: تُحسِنُ تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: عَلِّمنا الخط، فجاؤا بأولادهم من الصبيان والشباب، فكنت أُعَلِّمُهم، فحصل لي أيضاً من ذلك شيء كثير، فقالوا لي بعد ذٰلك: عندنا صَبِيَّةٌ يتيمة ولها شيء من الدنيا نريد أن تتزوَّج بها، فامتنعتُ، فقالوا: لا بدَّ وألزموني؛ فأجبتهم إلى ذٰلك.

فلما زَفُّوها إليَّ مَدَدْتُ عينيَّ أنظرُ إليها، فوجدتُ ذلك العِقْدَ بعينه معلَّقاً

في عنقها، فما كان لي حينئذ شُغل إلا النظر إليه، فقالوا: يا شيخ! كسرتَ قلبَ هٰذه اليتيمة من نظرِكَ إلى هٰذا العقد، ولم تنظر إليها، فقَصَصْتُ عليهم قِصَّةَ العِقد، فصاحوا وصرَّخوا بالتهليل والتكبير حتى بلغَ إلى جميع أهل الجزيرة؛ فقلتُ: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقدَ أبو هٰذه الصبيَّة، وكان يقول: ما وجدتُ في الدنيا مسلماً إلا هٰذا الذي رَدَّ عليَّ هٰذا العقد، وكان يدعو ويقول: اللهم اجمع بيني وبينه حتى أُزوِّجهُ بابنتي، والآن قد حصلتْ، فبقيتُ معها مدة، ورُزقتُ منها بولدين.

ثم إنها ماتت فورِثْتُ العقد أنا وولداي، ثم مات الولدان؛ فحصل العقدُ لي، فبعته بمئة ألف دينار، وهٰذا المال الذي ترونه معي من بقايا ذلك المال»[(١)].

* شرح «تحفته» وزوَّجه ابنته.

أورد العلماء في ترجمة أبي بكر الكاشاني قصة حسنة تنبىء عن نبوغ بعض النساء في العلم؛ قالوا:

«تفقه عليه الإمام أبو بكر السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه مثل «التحفة في الفقه» وغيرهما من كتب الأصول، وزوجه شيخه المذكور ابنته فاطمة الفقيهة العاملة، قيل: أن سبب تزويجه بابنته أنها كانت حسناء النساء وكانت حفظت «التحفة» تصنيف والدها، طلبها جماعة من ملوك بلاد الروم؛ فامتنع والدها، فجاء الكاشاني ولزم والدها واشتغل عليه، وبرع في علمي الأصول والفروع، وصنف «كتاب البدائع» وهو شرح «التحفة» وعرضه على شيخه؛ فازداد فرحاً به وزوجه ابنته وجعل مهرها منه ذٰلك؛ فقال الفقهاء في عصره: «شرح تحفته زوجه ابنته»، وجعل مهرها منه في ذلك»[(٢)].

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (١ / ١٩٦).

(٢) انظر: «طبقات الفقهاء» (١٠٢) لطاش كبرى زاده، و«إعلام النبلاء» (٤ / ٢٥٠، ٢٨٦)، و«الفوائد البهية» (١٥٨).

وزاد اللكنوي في ترجمة السمرقندي أن زوجها كان يخطىء فتردّه إلى الصواب، وكانت الفتوى تأتي فتخرج وعليها خطّها وخطُّ أبيها، فلما تزوَّجت بصاحب «البدائع» كانت تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها[1].

*** عائلة ابن حجر العسقلاني فيها كثير من طالبات علم الحديث النبوي.**

الحافظ ابن حجر العسقلاني خاتمة أمراء المؤمنين في الحديث، اسم مشهور عند من له أدنى عناية بالحديث النبوي، وكتابه «فتح الباري» الذي زال به ديناً على الأمة المحمدية من الكتب النافعة الماتعة الجامعة، ويعدّ ـ بحق ـ شرحاً للكتب الستة (الصحيحين، والسنن والأربعة)، وقد قيل فيه: «لا هجرة بعد الفتح»[2].

هٰذا الإمام العَلَم العلاّمة كانت له عناية فائقة بتدريس زوجاته وبناته الحديث النبوي، وبرز في عائلته غير واحدة ممن أتقنت هٰذا العلم واشتهرت بالرواية، وإليك بيان ذٰلك بالتَّفصيل:

ـ أُختــه ست الــرَّكب بنت علي بن محمــد بن محمــد بن حجـر العسقلانية[3]، (ت ٧٩٨هـ).

كانت قارئة كاتبة، أُعجوبة في الذَّكاء، أثنى عليها؛ قال: «كانت أُمي بعد أمي»، وذكر شيوخها وإجازاتها من مكة ودمشق وبعلبك ومصر، وقال: «تعلّمت الخط، وحفـظت الكثير من القرآن، وأكثرت من مطالعة الكتب؛ فمهرت في ذلك جدّاً»، وكان لها أثر حسن عليه؛ قال: «وكانت بي برَّة رفيقة

---

(1) «الفوائد البهيّة» (ص ١٥٨).

(2) انظر كتابنا: «معجم المصنفات الواردة في فتح الباري» (٦ ـ ١٦).

(3) لها ترجمة في «إنباء الغمر» (١ / ٥١٧)، و«الجوهر والدرر» (١ / ق ١٤ / أ)، و«المجمع المؤسس» (ق ٣٩١ ـ ٣٩٢)، و«شذرات الذهب» (٦ / ٣٥٤).

محسنة»، وقد رثاها بقصيدة عند موتها.

وقد ذكر السخاوي تحصيلها وإجازاتها وزواجها وأولادها، وأفاد أن لها ابنــة اسمهــا موز (ت ٨٥٠هـ)، أخـذت عن خالها ابن حجر، وأخذ عنها السخاوي، ولٰكنها لم تعمّر، وماتت في حياة خالها وصلى عليها رحمها الله تعالى.

ـ زوجته أُنْس ابنة القاضي كريم الدين عبد الكريم بن عبد العزيز ناظر الجيش[1].

كان الحافظ ابن حجر حريصاً أشد الحرص على نشر العلم بين أهل بيته وأقاربه كحرصه على نشر العلم بين الناس، ومن بين الذين حرص عليهم زوجته أُنس هٰذه؛ فقد أسمعها من شيخه حافظ العصر عبد الرحيم العراقي الحديث المسلسل بالأولية، وكذا أسمعها إياه من لفظ العلامة ابن الكويك، وأجاز لها باستدعاء عدد من الحفاظ؛ منهم: أبو الخير ابن الحافظ العلائي، وأبــو هريرة عبد الرحمٰن ابن الحافظ الذهبي، ولم تكن الاستدعاآت لها لتقتصر على المصريين فقط، بل من الشاميين والمكيين واليمنيين.

وقـد لمع نجم أُنس هٰذه في علم الرواية في حياة زوجها، وكان في بعض الأحـايين يداعبهـا بقوله: «قد صرتِ شيخة»، وكان زوجها يكنّ لها الاحترام الكبير، كما كانت هي عظيمة الرِّعاية له.

وقد حدَّثَتْ بحضور زوجها، وقرأ عليها الفضلاء، وكانت تحتفل بذٰلك وتكرم الحاضرين، وقد خرج لها السخاوي أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً وقرأها عليها بحضور زوجها، وكانت كثيرة الإمداد للعلامة إبراهيم بن خضر

---

(1) لها ترجمة في «إنباء الغمر» (١ / ٣٩٤، ٥١٣)، و«الجواهر والدرر» (ق ٢٨١ / ب).

ابن أحمد العثماني، (ت ٨٥٢هـ)، العلامة المتفنِّن، الذي كان يقرأ لها «صحيح البخاري» في رجب وشعبان من كل سنة، وتحتفل يوم الختم بأنواع من الحلوى والفاكهة، ويهرع الصِّغار والكبار بحضور ذلك اليوم قبيل رمضان بين يدي زوجها الحافظ، ولما مات الحافظ ابن خضر؛ قرأ لها سبطها يوسفَ ابن شاهين ولم تضبط لها هفوة ولا زلَّة.

- ابنته زين خاتون (ت ٨٣٣هـ).

اعتنى بها أبوها واستجاز لها في سنة ولادتها (٨٠٢هـ) وما بعدها، وأسمعها على شيوخه كالعراقي والهيثمي، وأحضرها على ابن خطيب داريّا، وتعلمت القراءة والكتابة، وولدت يوسف بن شاهين المعروف بـ (سبط ابن حجر) الذي كانت له عناية بكتب جده، وكتب من أماليه، وصنَّف ونسخ كتب ابن حجر.

ولم تظهر لابنته زين خاتون رواية ولم تشتهر بذلك لوفاتها شابة سنة (٨٣٣هـ) عن نحو ثلاثين سنة، وهي حامل بالطاعون رحمها الله تعالى[١].

- ابنته فرحة (ت ٨٢٨هـ).

استجاز لها أبوها مع أمها واعتنى بها، وأسمعها من مشايخه.

- ابنتاه فاطمة وعالية (كلاهما ت ٨١٩هـ) بالطاعون، استجاز لهما أبوهما ابن حجر من جماعة.

- ابنته رابعة (ت ٨٣٢هـ).

أسمعها والدها على المراغي بمكة سنة ٨١٥هـ، وأجاز لها جمع من الشاميين والمصريين.

---

(١) لها ترجمة في «الضوء اللامع» (١٢ / ٥١)، و«إنباء الغمر» (٨ / ٢١٢).

ولم تشتهر بنات الحافظ ابن حجر بالرواية، كما اشتهر بها والدهنَّ وأمهنّ، وذلك بسبب وفاة معظمهنَّ في سنٍّ مبكرة في الطاعون[١].

هؤلاء هنّ بنات الحافظ ابن حجر وهذه هي زوجته؛ فقد كُنَّ جميعاً رحمهنَّ الله ممن له عناية بالحديث النبوي، وشارك بعضهنَّ في التدريس والرواية، وذلك بسبب حرص الحافظ عليهنَّ، مع كثرة أشغاله وتعدد مجالسه ونفاسة مؤلَّفاته، فلم يجعله ذلك كله مقصِّراً في تعليم أُسرته وإرشادها إلى علم الحديث النبوي.

*** عناية محدث بابنته.**

ولدت للمحدث أبي العباس أحمد بن عبد الله اللخمي المغربي الفاسي (ت ٥٦٠هـ) بنتٌ، فلما كبرت؛ أقرأها بالسَّبع، وقرأتْ عليه «الصحيحين» وغير ذلك، وكتبت الكثير، وتعلَّمت عليه كثيراً من العلم، ولم ينظر إليها قط، وكان ذلك في أول العمر اتفاقاً؛ لأنه كان يشتغل بالإقراء إلى المغرب، ثم يدخل بيته وهي في مهدها، وتمادى الحال إلى أن كَبُرَتْ، فصارت عادة وزوَّجها ودخلت بيتها والأمر على ذلك ولم ينظر إليها قط[٢].

قلت: عنايته بتعليم ابنته حسنة جدّاً، ولكن عدم نظره إليها ليس بحسن، ولذا علق عليه الذهبي بقوله:

«قلت: لا حرج في مثل هذا، بل السُّنَّة خلافه؛ فقد كان سيِّدُ البشر ﷺ يحمل أُمامة بنت ابنته وهو في الصلاة».

قلت: وهذا الحديث ثابت في «صحيح البخاري» (رقم ٥١٦، ٥٩٩٦)، و«صحيح مسلم» (رقم ٥٤٣).

---

(١) راجع: «ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته» (١ / ٩٦ وما بعدها).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٣٤٧ - ٣٤٨).

*** امرأة تمدح كتاب زوجها.**

في «مسالك الهداية» لأبي سالم العياشي: أنشدني بعض الإخوان بالقاهرة لبنت الباعوني زوجة القسطلاني في كتابه «المواهب»:

كِتَابُ جَلِيلُ وَكَمْ قَدْ جَمَعْ ... كِتَـابُ الـمَـوَاهِـبِ مَا مِثْلُهُ

يَقُولُ الـوَرَى مِنْكَ لَا يُسْتَمَعْ[1] ... إِذَا قَالَ عَمْـرٌ لَهُ مُشْبِـهُ

*** زوجة السِّلَفي تتوسط لإسماع زوجها بعض المحدِّثين.**

قال السَّيفُ أحمد ابن المجد الحافظُ: سمعتُ أحمد بن سلامة النَّجَّار يقول: أراد عبد الغني المقدسي وعبد القادر الرُّهاويّ الحافظان سماعَ كتاب اللالكائي «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» على السِّلَفيّ، فأخذ يتعلَّل عليهما مرة، ويدافُعُهم عنه أخرى بأصل السماع، حتى كَلَّمْته امرأتُهُ في ذلك[2].

*** اختارتْ مذهباً غير مذهب أهلها.**

ذكر من ترجم للشيخة الصالحة المتفقِّهة الحنفية خديجة بنت محمد ابن حسن الحلبية (ت ٩٣٠هـ)، وقد كان لها عناية بعلم الحديث النبوي، أجاز لها الكمال ابن الناسخ الأطرابلسيّ وغيره رواية «صحيح البخاري» أنها اختارت مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى مع أن أباها وإخوتها شافعيُّون؛ حفظاً لطهارتها عن الانتقاض بما عساهُ يقع من مسِّ الزَّوج لها[3].

---

(١) «فهرس الفهارس والأثبات» (٢ / ٩٦٨)، وانظر في ترجمة (ابن الباعوني) وبيان مصنفاتها ونماذج من شعرها في «الكواكب السائرة» (١ / ٢٨٧).

(٢) «السير» (٢١ / ٢٨)، وعقب على ذلك بقوله:

«قلت: ما أظنُه حدَّث بالكتاب، بل حدَّث منه بكرامات الأولياء».

(٣) «الكواكب السائرة» (١ / ١٩٢)، والحقّ أن مس المرأة لا ينقض الوضوء، وقد بسطت الكلام على هذه المسألة في تعليقي على «الخلافيات» للبيهقي.

*** عناية قاضٍ ببناته وحفيداته.**

جـاء في مقدمة كتاب «المعلِّمين» لابن سحنون: «أن القاضي الورع عيسى بن مسكين كان يقرىء بناته حفيداته... قال عياض: فإذا كان بعد العصر دعا ابنتيه وبنات أخيه ليعلمهنّ القرآن والعلم، وكذلك كان يفعل قبله فاتح صقلية أسد بن الفرات بابنته أسماء التي نالت من العلم درجة كبيرة.

وروى الخُشني أن مؤدباً كان بقصر الأمير محمد بن الأغلب وكان يعلم الأطفال بالنهار، والبنات في الليل»[1].

*** لطيفة عن والدة الإمام الشافعي.**

ذكر السبكي لطيفة عن والدة الإمام الشافعي تنبىء عن فهم ثاقب وعقل راجح بحيث أنها فهمت آية من كتاب الله تعالى على نحو حاججت به قاضياً من القضاة، قال رحمه الله تعالى:

«وكانت أمه رضي الله عنها باتفاق النَّقَلة من العابدات القانتات، ومن أذكى الخلق فطرة، وهي التي شهدت هي وأم بشر المريسي بمكة عند القاضي، فأراد أن يفرِّق بينهما ليسألهما منفردتين عما شهدتا به استفساراً، فقالت له أم الشافعي: أيها القاضي! ليس لك ذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما فَتُذَكِّرُ إِحْدَاهُما الأُخْرَى﴾[2]؛ فلم يفرِّق بينهما».

وعلق السبكي على هٰذا الخبر بقوله:

«قلتُ: وهٰـذا فرع حسن، ومعنى قوي، واستنبـاط جيد، ومنزع غريب، والمعروف في مذهب ولدها رضي الله عنه إطلاق القول بأن الحاكم إذا ارتاب بالشهود استُحبَّ له التفريق بينهم، وكلامها رضي الله عنهما صريح

---

(١) «الأخت المسلمة» (ص ٦٤).

(٢) البقرة: ٢٨٢.

في استثناء النساء للمنزع الذي ذَكَرْتُهُ ولا بأس به»[1].

*** مؤلَّفات أندلسيَّات.**

وإنَّ للمرأة الأندلسية كذلك لنتاجاً طيباً صالحاً، ومشاركة في سائر العلوم وضروب الفنون، ولكن ضاع كثير من نتاجهن وتآليفهن، أين كتاب «قيان الأندلس» لفتحونة بنت جعفر المرسية التي عارضت به كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني؟ أين كتاب «القبور» لأم الهناء كريمة القاضي عبدالحق بن عطية؟

*** المشاركات بالعلم ولهنّ صلة بعلماء مشهورين.**

وفي الختام سأعمل على سرد أسماء من لهنّ مشاركة بالعلم ولهن صلة بالمشهورين من العلماء موضِّحاً هذه الصِّلة، كاشفاً عن هذه المشاركة، ممثلاً ببعضهن غير مستقصٍ لأحوالهن، والله المستعان لا رب سواه.

ـ الشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت إبراهيم بن صدِّيق السلمي الدِّمشقية[2]، (ت ٧٤١هـ).

كانت زوجة محدث الديار الشامية أبي الحجاج المزِّي، وكان ابن كثير زوج ابنتها، وسمعت من أحمد بن هبة الله ابن عساكر، ومن أحمد بن عبدالحميد بن عبدالهادي الجزء السابع من «حديث أبي نصر محمد بن أحمد بن هارون»، وسمعه منها ابن طغريل، كانت تحفظ القرآن الكريم وتلقِّنه النساء، وأقرأتْ عدَّةً من النساء وختمن عليها وانتفعن بها، وحدَّثت بالحديث النبوي.

---

(1) «طبقات الشافعية الكبرى» (٢ / ١٧٩ ـ ١٨٠).

(2) لها ترجمة في «الدرر الكامنة» (٢ / ٣٣٩)، و«الوفيات» (رقم ٧٩٧) لابن رافع السلمي، و«الذيل على العبر» (١ / ١٣٨).

مدحها زوج ابنتها ابن كثير؛ فقال: «كانت عديمة النظير لكثرة عبادته وحسن تأديتها للقرآن، تفضل في ذلك على كثير من الرجال، وكانت زاه في الدنيا متقللة منها».

ومن لهن عناية بهذا العلم ولابن كثير بها صلة:

ست القضاة بنت عبد الوهاب بن عمر بن كثير[1]، (ت ٨٠١هـ)، وه ابنة أخيه، وأجاز لها القاسم بن عساكر، والحجار، والواني، والمز وآخرون.

وخرج لها صلاح الدين الأقفهسي أربعين حديثاً عنهم.

قال الحافظ ابن حجر: «وأجازت لي».

ـ الشيخة سارة ابنة القاضي عز الدين عبدالعزيز بن محمد بن جماعة (ت ٧٦٣هـ)، وزوجة القاضي فخر الدين أبي جعفر ابن الكويك، سمع الحديث على جدّها المذكور، وعلى الوانيّ والدَّبُوسيّ، وحضرت على حس الكُرْدِيّ وحدَّثت.

ـ خديجة بنت المحدث عبد الرحيم بن الحسين العراقي، وزوج المحدث نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، كانت تساعد زوجها ف مراجعة كتب الحديث[3]، وكان أبوها قد علم زوجها طريقة التخريج، وك يطلب منه تصنيف «الزوائد» على كتب السنة المشهورة، وكان زوجها الهيثم معظماً له؛ فها هو يقول عنه في مطلع كتابه «مجمع الزوائد»:

---

(1) لها ترجمة في «إنباء الغمر» (٤ / ٦٠)، و«المجمع المؤسس» (١ / ٦١٥ و«الضوء اللامع» (١٢ / ٥٧)، و«شذرات الذهب» (٧ / ٧).

(2) لها ترجمة في «الذيل على العبر» (١ / ٨٤).

(3) «تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة» (ص ٣٩).

«. . . فقـال لي سيدي وشيخي العـلامـة شيخ الحفـاظ بالمشرق والمغرب، ومفيد الكبار ومن دونهم؛ الشيخ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم ابن العراقي رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثوانا ومثواه: اجمع هٰذه التصانيف واحذف أسانيدها لكي يجتمع أحاديث كل باب منها في باب واحد من هٰذا، فلما رأيت إشارته إليَّ بذلك؛ صرفت همتي إليه، وسألتُ الله تعالى تسهيله والإعانة عليه، وأسأل الله تعالى النفع به، إنه قريب مجيب»[1].

قال السخاوي مبيِّناً إفادة الهيثمي من شيخه ووالد زوجته العراقي:

«وهو ـ أي العراقي ـ الذي درَّبه ـ أي الهيثمي ـ وعلَّمه كيفية التخريج والتصنيف، بل كان هو الذي عمل له خطب كتبه ويسمِّيها له»[2].

ومن الجـدير بالذِّكر أنَّ العراقي كما اعتنى بابنته هٰذه حتى تسنَّى له مساعدة تلميذ أبيها والبار به؛ فإنه اعتنى أيضاً بزوجته، وقد ترجم لها ابنها أحمد ولي الدين، فقال في وفيات سنة ثلاث وثمانين وسبع مئة:

«وماتت بظاهر القاهرة يوم الجمعة الحادي والعشرين من صفر والدتي أم أحمد عائشة بنت طغاي العلائي، تغمَّدها الله برحمته وجمعنا وإيَّاها في دار كرامته، مطعونةً حاملاً؛ فحصلت لها الشهادة من وجهين، ولقَّنها والدي رحمه الله سيد لاستغفار فقالَتْهُ، ثم ماتت عقبه، ودُفِنت قبل صلاة الجُمعة وراء الخـانقـاه الـدَّاودارية، وهي شابَّة جاوزت الثلاثين بيسير، ومكثت في صُحبة والدي أكثر من عشرين سنة.

وكـانت سليمـة الصـدر، حسنـة العِشرة، حسنـة الأخـلاق، كثيرة الإحسان، وذهبت مع والدي إلى الشام في رحلته الأخيرة إليها سنة خمس

---

(١) «مجمع الزوائد» (١ / ٧).

(٢) «الضوء اللامع» (٤ / ١٧٥).

وستين وسبـع مئـة، وسمعت بدمشق على محمـد بن موسى ابن الشُّيَرجي «جـزء الأنصـاري» وعلى غيره ولم تُحَدِّث، وحَجَّت أربع حجات وجاورت بالحرمين غير مرة.

وكان أبوها من أجناد أرغون النائب، وتوفي عنها وهي صغيرة؛ فتزوَّجها والدي يتيمة»[1].

ـ عائشة بنت الإمام محمد بن الهادي[2] (ت ٨١٦هـ).

قال ابن قاضي شهبـة عنهـا: «المسنـدة، المُعمَّـرة، الرَّحَلَةُ، لهـا المسموعات الكثيرة، وانفردت بالرواية عن الحجَّار وغيره، وأمرُها مشهور».

وقـال العُليمي في ترجمتهـا: «الشيخـة الخيِّرة رحلة الدنيا»، وقال: «وحضرت في أوائل الرابعة من عمرها جميع «صحيح البخاري» على مسند الآفاق أبي العباس أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم الصالحي الحجار»، وروت عن خلق، وروى عنهـا الحافظ ابن حجر، وقرأ عليها كتباً عديدة، وتكـرر ذكرهـا في «معجم شيوخ ابن فهـد» وغيره؛ فروى عنهـا أكثر أهل عصرها، وقصدت بالرحلة للسماع عليها، وأصبحت في آخر عمرها أعلى أهل زمانها إسناداً.

ـ سارة بنت الإمام العلامة تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي[3] (ت ٨٠٥هـ)، وشقيقة الشيخ تاج الدين السبكي، أُسمعت وهي صغيرة من

---

(١) «الذيل على العبر» (٢ / ٥١١ ـ ٥١٢).

(٢) لها ترجمة في «إنباء الغمر» (٣ / ٢٥)، و«الضوء اللامع» (١٢ / ٨١)، و«الجوهر المنضد» (رقم ١٢٥)، و«المنهج الأحمد» (٢ / ١٣٧)، و«شذرات الذهب» (٧ / ١٢٠)، و«السحب الوابلة» (٣٣٤).

(٣) لها ترجمة في «إنباء الغمر» (٥ / ١٠٢)، و«الضوء اللامع» (١٢ / ٥١)، و«ذيل التقييد» (٢ / ٣٧٣)، و«المجمع المؤسس» (١ / ٦١٠)، و«شذرات الذهب» (٧ / ٥٠).

زينب بنت الكمـال، والجَـزَرِيّ وأبيها، ولها إجازة من المزِّي، والذهبي، وعبدالرحمٰن بن تيمية وغيرهم من الشاميين.

وأجـازت لابنـة ابن حجـر خاتون، واجتمع بها ابن حجر وقرأ عليها «مشيخة والدها» تخريج أبي الحسين ابن أيبك، والجزء الرابع من «تاريخ أبي زُرعة الدمشقي»، و«مشيخة ابن شاذان»، وجزءاً فيه خمسة أحاديث منتقاة من الجزء السابع من «فضائل الصحابة» لابن المهندس، وجزءاً فيه «مسائل البَرْقاني» للدَّارقطني.

وأخيراً؛ هٰذه نماذج علمية وصور واقعيَّة عمليَّة تنبىء عن واقع المرأة ومكانتها في الإسلام، حُق لأهل الأرض ـ كل الأرض ـ ولنساء العالم ـ كل العالم ـ أن تفتخر بها، وتضعهـا نصب أعينهنّ، وتقطع الطريق بها على أعوان الشياطين ـ من الإنس قبـل الجـان ـ المتربِّصين لهن، والمعتدين عليهن، والزاعمين ـ زوراً وبهتاناً ـ أنهم يعملون لتحريرهنّ وأخذ المكانة اللائقة بهن!! اللهم إلا إنْ أرادوا تحريرهنّ من التكاليف وإعفاءهن من المسؤولية الشرعية!!

يا للهول! هل من منزلة أعلى وأغلى للمرأة من هٰذه المنزلة التي رقمناها في هٰذه السـطور، وزبرناها في هٰذا السفر النافع إن شاء الله تعالى، وهل وجدت المرأة نفسها في غير الإسلام؟ نعم إنها وجدت نفسها عندما عرفت ربها، ورحم الله من قال: «من وجد الله ماذا فقد، ومن فقد الله ماذا وجد»؟!

اللهم لا تعذب لساناً يخبر عنك، ولا يداً تكتب حديث رسولك ﷺ، ولا قدماً تمشي لخدمتك، ولا عيناً تنظر في علوم تدل عليك.

وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

*****

الفهارس

١ ـ فهرس الآيات.
٢ ـ فهرس الأحاديث.
٣ ـ فهرس أسماء النساء المترجم لهن.
٤ ـ فهرس الموضوعات والمباحث.